واحد بالمئة من الحب

اســـم المـؤلـف: **شيخه عبدالله**
عنـــوان الكتاب: **واحد بالمئة من الحب**
تصنيف الكتاب: **رواية**
تنقـيح وتدقيق: **كادر دار المها**
تصمم الغلاف: **رسُل الصوفي**
إخـــــراج فـــني: **واثق زياد السامرائي**
الـــــنـــــاشـــــر: **دار المها**
الطبعـة الأولـى: **٢٠٢٣**

جميع الحقوق محفوظة: دار المها للطباعة والنشر والتوزيع
Copyright © Dar Al Maha Printing, Publishing and Distribution

العنوان: **ديالى / بعقوبة** حسابنا على الإنستغرام **@dar._almaha**

لا يسـمح بإصـدار هـذا الكتـاب أو أي جـزء منـه أو تخزينـه في نطـاق اسـتعادة المعلومـات أو نقلـه بـأي شـكل مـن الأشـكال دون اخـذ إذن خطـي مسـبق مـن الناشـر أو المؤلـف، ان الآراء الـواردة في هـذا الكتـاب لا تعبـر بالضـرورة عـن رأي دار المهـا.

واحد بالمئة من الحب

رواية

تأليف

شيخه عبدالله

الإهداء.

إلىٰ الطفلة التي أُجهِضت قبل ولادتِها..
هنيئاً لكِ... لن تأتين إلى عالمنا المؤلم
ولن يكونَ لكِ والدٌ جبان.

سوريا، حلب

٢٠١١ م

٧:٠٠ وقت المدرسة.

كانَ الجو بارداً جداً، أيقظتني أمي «ورد»: هيا انهضي يا ابنتي كي لا نتأخر عن المدرسة، إنهُ اليوم الأول في الصف الرابع ابتدائي وأنتِ كسولة إلى هذهِ الدرجة.

- لا أريد الذهاب يا أمي، أريد أن أنام...

بعد أن أخبرتها بعدم قبولي للذهاب إلى مدرستي جاءت واحتضنتني وكأنها تعرف بأنني أحبُ اللُطفَ منها كثيراً.

أخرجت ثيابي من الخزانة، البنطال والسدرية الزرقاء والتي كانت تحتضن صورة «ناروتو» الذي اكرهه بشدة (أريد الباربي، ولكن أمي تقول بأنها جميلة وأنها تليق بي! وأن ارتديها رغماً عن أنفي، ثم ارتدي الفولار البرتقالي الذي يحيطه خطٌ أبيض بإرادتي الخالصة لأنني أحسب بأنه يجعل شعري القصير طويلاً!

بعد انتهاء ارتداء ملابسي تصطحبني أمي للمدرسة سيراً على الاقدام لقربها من البيت.

دخلتُ المدرسة وكأنني ادخل عالم غامض، عالم لا أحبه اطلاقاً، لم يكن لدي أصدقاء ولا أية صديقات، لم يكن أحد منهم يحبني لأنني فتاةٌ ذي بشرةٍ سمراء، كان الجميعُ يكرهُني ولأنني كنتُ ناجحة في دراستي، أيضاً لم يكن ذوو صفي يحبونني، بحسبهم أنني اسرق الدرجات من الأستاذ!!!

جميعهم كانوا متنمرين بقوة

إلا فتاة تعرفت عليها في الصف الرابع «ريم» كانت فتاةٌ جميلة ولطيفة، كانت تشبهني في الطول تقريباً، حيثُ كنا طويلتين مقارنةً ببقيةِ الطُلاب، لازلتُ اتذكر تجعد شعرها الأشقر وعينيها الخضراوين.

ألقت الـ«مرحباً» فقلتُ مرحباً، فقالت (هل تصبحين صديقتي؟)، وافقتُ علىٰ الفور لأنني كنت وحيدة
«أحببتـها كثيراً لأنها قالت لي مر حُبَاً»

بعد أن رن الجرس ودخل الجميع إلى صفوفهم بانتظام مع معلميهم، رُوحتُ وأمي إلىٰ مكتب المدير ككل عام دراسي جديد بالضبط، ألقت أمي التحية علىٰ الأستاذ حسن الذي طالما أحببته.

وبعد إلقاء السلام بينهم قال لي:« كيف الأمورة ورد»، ابتسمتُ من اعماقي وكأنني طُرتُ إلىٰ الفضاء الواسع، هل أنا «أمورة» يا إلهي إنهُ يحبني .

لم أُجب لحظتها لـ شدة خجلي فقد كنت خجولة إلىٰ حدٍ مُريب!

دخل أستاذ «عبدالله» إلىٰ مكتب المدير وقال كيف حال الصغيرة «ورد» ؟ أجبته بالحمد لله، ولكن لم اعرف من يكون في ذلك الوقت، ولكن كيف لهذا الغريب أن يعرف اسمي!! «اكتشفتُ مع الوقت بأن جميع المعلمين في المدرسة كانوا يعرفون ورد لكثرة تردد أمي علىٰ المدرسة لأن الأطفال كانوا يلحقون بيها الضرر ويضربونها دائماً لا يملونَ أو يكلون!»

شُكراً لكِ يا أمي.. شُكراً لمحاولاتكِ انقاذي مِن هؤلاء، ولكن الجميعَ كان يتنمر عليّ بشكل أو بآخر، الجميعُ كان يسرق طعامي الذي تُخبئيه بحقيبتي.

ولأن الأساتذة والمعلمات كانوا دائماً ما يُميزونني علىٰ بقيةِ الطلاب لأنني اتقن دروسي جيداً فكانت معاقبتي أنا من الطلاب الذين يحرضون الجميع علىٰ ورد ويقولون «إنها تسرق الدَرجات»!!

ففي احدى الأيام الصباحية عند التجمع في باحة المدرسة وقبل الدخول إلى الصفوف، قال لي أحدهم وقد كانَ بديناً:

اريدكِ أن تموتي يا سوداء....!! وكان أحد المعلمين ينظم الطلاب للدخول إلىٰ الصفوف، كنت امشي باتجاه بناية المدرسة لأدخل صفي وإذا به يضربني بشدة في باب البناية الضخم، لم اعرف ما الذي حدث إلا بعدما وجدتُ نفسي في غرفة المدير نائمة علىٰ الاريكة.

حقاً ما هذا الحقد «أهكذا تُربىٰ الأبناء، أيزرعُ فيهم حقداً وكرهاً منذُ الصغر»؟

«وحتىٰ اليوم يا أمي، لازلتُ اضرب وأرمىٰ بدون أدنىٰ سبب مني، لا زلتُ أُخان وأبكي من أعظمهم حُباً بقلبي»

لازلتُ اختبئ في الخزانات مُذُّ ذلك اليوم الذي ضربتُ فيه بباب الحديد لأنني احببتُ دروسي!

فأنا ايقنت أنه مهما اجتهدتُ بالبكاء أمام الجميع فَليس هناك حل ينقذني.

أحبكم لأنكم فعلتم الكثير من أجلي ومن أجل

حمايتي وسعادتي ولكن العالم هكذا يا أمي، العالم يكرهُ ورد فيقدم لها

الأشرار من البشر!

الجميع يضربني منذ أن كنتُ طفلةً صالحة لا تعبثُ بشيء إلا بوجهها الذي تكرهه والذي تظن بأنه قبيحٌ للغاية

٢٠١٩ م

٧:٠٠ صباح المدرسة

بدايةٌ جديدة مِنَ الأمل.

مـرَّ ثمانيةَ سنوات بطولـها، صِـرتُ الآن فتاة قوية تُـحب نفسـها، صِرتُ الوردة التي تسكـن الشمس بـدون أن تخاف من الحـرق.

أنا الآن في الصـف الثاني عشـر، وأنا انتقـل إلىٰ مدرسـة اخـرىٰ غيـر مدرستي الـتي انهيـت بهـا المتوسـطة بعـد أن افتعلـتُ المشـكلات مـع احـدىٰ الفتيـات « صِـرتُ افتعـل ولا يُفتعـل عليَّ، لا يسـتطيع احـد أن يسـتصغر قلبي وعقلي ووجهي.»

دخلـتُ المدرسـة مـع أبي وتوجهنـا سـوياً إلىٰ الإدارة.. إلىٰ غرفةِ المـديرة ماجـدة، وكانـت مـن أكـثر المـدراء التي أُكـن لهـا اهتمامـاً واحترامـاً بعـد أسـتاذ حـسن.

وجَهتـني إلىٰ صـفي وقـد كنـت متأخـرة عـن الـدرس بعـشرة دقائـق، فبعـد أن دخلـتُ الصـف رحبـت بي المدرّسـة تيسيـر مُدرسـة اللغـة العربيـة، كان وجهها بشـوشٌ ولطيـفٌ للغايـة وكانـت ترتـدي تنـورةً سـوداء وتيـشرت وردي وكانـت ترتـدي حجـاباً ورديـاً أيضـاً وتضـعُ أحمـر شـفاهٍ يبـدو متناسـقاً مـع وجهها اللطيف.

تمنـت لي سـنة دراسـية جيـدة وأن احصـل علىٰ المعـدل المثـالي الـذي يهيئـني للوصـل إلىٰ حـلمي.

ابتسمت.. نظرت إليها بحب وأخبرتها شُكري الجزيل.

«شكراً لِمن تمنىٰ لي حُلمي»

جـلستُ في المقعـد الرابـع تمامـاً وكانـت لي صدفـةً جميـلةً هُنـاك، لأنـني رأيـت احـدىٰ الزميـلات مـن المدرسـة المتوسـطة

«مريـم» كم سُـعدت من جديـد رأيـت شخصـاً اعرفـه بمنتصف الغربـة والتـوتر الجديد!

قلتُ مرحباً وابتسمتُ بحب وتأهيل.

انتهى درس اللغة العربية ولكنني لشدة توتري لم أفهم أي شيء مما ألقت علينا المدرسة تيسير.

خرجنا للإستراحة وتعرفت على زميلات صفي واللاتي كان يفوق عددهن الأربعين طالبة.

قالت مريم: لم انتقلت، فالمدرسة القديمة كانت الأقرب لكِ؟

أتعرفين يا مريم بأنني لو بقيت يوماً واحداً في تلك المدرسة سيشيخُ قلبي من الحزن لأن المديرة كانت لا تحبني حتى

فقد كانت تقول أنتِ مشاغبة.. أنتِ لا يعجبني شكلكِ.

هذهِ هيَ أسبابها الحمقاء! بالرغم من أن صوتي يكادُ لا يصدر بسبب اعتزالي العالم وخطواتي الملاصقة لـ مروة التي اكتشفتُ بأنها سبب نفور المديرة مني!!!

لا أحب تلك المديرة التي يطلق لها اسم «حياة»، أين الحياة التي اعطتها لي؟ كانت تستطيع أن تحضرني لإدارتها لتقول ابتعدي عن تلك الفتاة فإنها ليست جيدة تضر سمعتكِ وأنتِ طالبة هادئة!!

ولكنهم يختارون اللاحُب دائماً.. يختارون الأسوأ في الطرح ومن ثم نحن المُلامون فقط!

اتذكر في أحد الصباحات الأسوأ من كل هذا، اتت إلى صفي وجعلت الفتاة التي تجلس بقربي تغير مكان جلستها وقالت لها « يبدو عليكِ فتاة جيدة انهضي إلى مقعد آخر فتلك الفتاة ليست مريحة (كانت تقصدني)»

سيظل هذا الوصف عالقاً بذاكرتي إلى الأبد الذي سأعيشه، لأنني ما كنت تلك الفتاة أبداً... ما كانت هذه الفتاة صديقتي من الأساس، وما كُنت سأعطي اخلاقها الفساد كما تفوهتِ أيتها المديرة.

قالت مريم وهيَ ممتعضة مما سمعت بقسوة:

إنـها حياة «علىٰ كل حـال»، إنهـا لئيمـة مع الجميع منـذ أن عرفناها ومنـذُ أن خُلقـت غالبـاً!

لا تكترثي فالجميع يعرف كم أنك لطيفة يا«ورد».

لحسنِ الحظ أنني وجدتكِ هنا يا «مريم»

في درس الكيميـاء اليـومي والـذي كان مـن نصيـب المدرسـة هيفـاء الجميـلة جـداً، كانـت قـد جمعـت الشـعبتين معـاً لتوفـر الوقـت حسـب ظنهـا ولكننـا أصبحنـا نفـوق الستـين طالبـة في صفٍ يمتـدُ إلىٰ ستةِ أمتـارٍ فحسـب، وهـذا سـببٌ كافٍ لعـدم فهـم ايـةِ كلمـة تنطـق!

كنـا نجلس أربعـة فتيـات في مقعـدٍ واحـد أنا ومـريم وأُخرَيَـين لا نعرفهـم مـن الشـعبة الثانيـة، كنـا قـد اختنقنـا حقـــاً، فقـد تركنـا مـا كانـت سـت هيفـاء تقـوم بشرحـه.

جلسـت قـرب الجـدار الـوردي للصـف وأخبرتهـا « لا تـزآلُ هُنـــالكَ زاويـــةٌ ورديـة مهمـــآ حـدث».

اخـذت ورقتـين لونتُهمـا باللـون الـوردي الفـاتح وصنعـتُ مروحتـين وكتبـتُ عليهمـا بالحـبر الأزرق

« لا زآل -هُنـاك-زاويـة-وردية ٤٤pm ٤:»

فقالت مريم: - أتعلمين أن ٤٤ ٤: هوَ وقت الحظ؟

ضحكـتُ... يا لحـظي الجميـل.. اعـرفُ بأن الألم لـن يزول ولكـن إن كان هنـاك زاويـة ورديـة فسيبقىٰ الألم فـي نزاعٍ دائم، لـن يتحـكم في اختياراتنـا وسـعادتنا!

جاء مـن بعيد صوت لـست هيفاء فجأة..

- «ورد» ..«مريم»، أُخرجا من الصف حالاً!!

نظرت إلى مريم وأخبرتها بعيني «هل طُردنا»؟

- نعم لقد طُردنا يا إلهي!

خرجنا في الباحة وضحكنا بصوت مرتفع وكأننا نعزي أنفسنا لأننا طُردنا.

بعد انتهاء الدرس وبعد استمتاعنا بالجو الطلق ذهبنا إلى ست هيفاء وقدمنا الاعتذار لها عمَّ بدر منا من سوء انصات، بدورها تقبلت الاعتذار لأنها كانت تعرف مستوياتنا الدراسية وبأننا مجتهدات دائما وأن التجمع أثر بالأجماع وليس علينا فقط!

بقينا في باحة المدرسة بعد أن اعتذرنا لست هيفاء ولكن كان دائماً ما يراودني سؤال.. إنه يتعب ذاكرتي فقلت:

- أتعرفين يا مريم لا زلت اقف أمام المرآة وأنظر إلى وجهي مطولاً وأتساءل هل ما زلت تلك الفتاة التي تكره وجهها؟ وهل ما زلت أخاف أن يناديني أحدهم بالسوداء؟

- لا أظن بأنكِ خائفة فعندما يخاف المرء من شيء ما لا يتكلم به لا يعطي نقاط ضعفه لِمن حوله، إن الخائف يحاول أن ينسى خوفه أو يتناساه، لستِ بخائفة وإنما متألِمة.. لا زال أثر الغبار من تلك السنوات يتناثر على وجهكِ.. استقبليه لينتهي، ليموت إلى الأبد.

- صدقيني لست أعرف إن كنت خائفة أن ينتهي بي المطاف وحيدة رغم امتزاجي بالعالم، خَلّف الماضي قُامة كثيرة في ذاكرتي ولا اعرفُ إن كنت سأنجح بتنظيفها.

مضى عليَّ سنوات كنت وحيدة إلا من أختي «قمر» التي كان الأصدقاء يألفون اللعب معها ولايريدونني بشكلٍ أو بآخر كأنني فتاةٌ منبوذة، ولكنها كانت معي لا تريد أحد إلايَّ وعلى الرغم بأنني أكبرُها بسنة إلا أنني أخاف منها أو إن صح التعبير أخاف أن تتركني هيَ أيضاً إذا قلتُ لها «لا»..

أخاف أن تتركني وحيدة مع الباربي التي احضرها لنا أبي ولأنني كنت أكره الباربي حين تغيب «قمر»، فلا شيء في الدنيا يضاهي قمر.

والآن كبرت وأصبحت أبحث عن الصداقات القوية وعن الأحباء، لا أريد المكوث وحيدة في الألم إن اشتدَّ الصراع، أنا اعرفُ بأن الله دائماً بجانبي وأنّ الله يُريد لي الأفضل في كل وقت فهو يعلم ما لا اعلم ويرىٰ ما لم اتمكن من رؤيته ويسمع مالا أستطيع سماعه ولكن غريزتي تدعوني للبقاء قوية وللعثور علىٰ أصدقاء مخلصين.

- لن تجدي صديقاً مُخلصاً ك «الله» !

تذكري دائماً واشيحي النسيان إلىٰ عالم الأموات.. «الله معنا، الله يقدم لنا الأفضل، الله لن يتركنا ما لم نتركه ونهرب إليه منَ الجميع، فإنهُ أخبرنا «فَفِرّوا إِلىٰ اللهِ أَيُّها المُؤمْنونَ لَعَلَكم تُفْلِحوُنَ»

ما دام الله معكِ لن تحتاجي البشر وإن اراد الله أن ينصركِ سخرَ لكِ البشر بأمرٍ من عنده.

٤/٦/٢٠١٩ م

اقتربَ موعد الامتحانات النهائية.. أقتربتُ منَ الحلم أكثر.. سأُحقق حلمي وحلم امي الذي رأتهُ لائقاً بابنتها الكبيرة.

نسيتُ لونَ السماء وزقزقة العصافير ومداعبة الريح لشعري وانخرطتُ في كتُبٍ صارت معالماً لي، صارت سمائي وعصافيري ورياحاً تُداعبُ أقلامي،«لن اعرف للراحة سبيل إلا أن أصل»

كانت جدتي رحمها الله تأتي إلى غرفتي كل يوم.. بل كل ساعة، تأتيني بطعام

يُساعدني على الاستمرار، وكانت تقول دوماً «ليكون حلمٌ قلبها، مَجدٌ في أرضِها يا رب».

كانت عائلتي دائماً ما ترفع معنويات دراستي، حتى جاء اليوم الذي سهرتُ من أجله ليالٍ طوال، يوم إعلان النتائج. أخبرونا بأنه من الممكن أن تُعلن النتائج ليلاً، قضيت الليل كله اترقب لحظة الاعلان، ابكي ساعة، وافكر ساعة... لأنها الرحلة الأخير من تلك المحطة التي دامت اثنتا عشرة سنة للوصل إلى ما حلمت به.

ساعة أخبر نفسي «لقد درستِ جيداً.. فعلتِ ما بوسعكِ فعله، فيكفيكِ قلقاً» وهكذا حتى حلَّ الصباح، لكن النتائج لم تُعلن، وهو ما زاد قلقي واضطرابي، انتظرت كثيراً، انقضت ساعات الصباح الثقيلة، فقد كانت أياماً بالنسبة لي، حلَّ الظهر ولا يوجد ما يسكّن قلقلي.

تولت زوجة عمي مهمة البحث عن نتيجتي؛ فأنا لا أستطيعُ حمل الجهاز اللوحي، سمعتها تصرخ بصوت ملئ البيت، كأن الكلمات كانت في تسارع لتخرج إلى فهما، أدركت حينها بأني على بُعد ثوانٍ من جني ثمار ما سهرت لأجله، ولكن قلقي منعني من تخمين ما إذا كانت الصوت يحمل بشرى سعيدة أو سيئة. حتى وقفت أمامي، كانت ملامحها غريبة، وجنتاها قد احمرتا بسبب الركض والصراخ، كانت الحيرة أيضا قد أخذت منها مأخذاً، فقد رأيتها مبتسمة وفي نفس الوقت كانت عيناها تلمع، كأن دموعها كانت تتجهز لتنزل.

لم اتمالك نفسي، بالكاد استطعت أن أبلع ريقي وأُخرج صوتاً من حبالي:

- أخبريني يا زوجة عمي، قولي شيئاً.

- لقد نجحتِ يا ورد، بواقع ٨١.٢٨٪

تركت كل شيء وذهبتُ اركضُ لأبي وأمي، احتضناني وبدأ بكاؤهما متصلاً بصوت بكائي.. قال أبي: أحسنتِ يا «ورد»، احسنتِ وعاد من جديد

ليحتضنني.
فأحيانا تشيخُ قُلوبنا في الانتظار وتذبل الوجوه حتىٰ يأتي ما هو منتظر فيزهرُ الربيعُ وتتفتحُ الأغصانَ وتنطلقُ العيونَ بالريِّ والإثمار.. حتىٰ تشعر بأن الليل نام ليستريحَ بين كفيكَ من شديدِ الأرق.
لا تدري أحلمٌ بهِ أنت أم استجابةٌ لمناجاة!
شمسٌ تحط علىٰ قلبك وتملأ الأنحاء رونقاً وضياءً.

٨:٤٣ صباحاً
في إحدى الصباحات البادرة، سألتني صديقتي نبأ.
-ما هو اكثر ما تثقين به في هذا العالم يا ورد؟
-أبي، هوَ أكثر من مجردِ كملة أو مجرد شخص قد ولدني، أعزز ثقتي به يومياً فما سبق أن خذل ابنته وما سبق أن حط من كرامتي فأنا أحبهُ أكثر من أي شيء واتمنى أن أكون عند حسن ظنه وعند حسن ابتسامته.
أتذكر حينما كانت تقول لي أُمي أنتِ جميلة عندما كان الأطفال يتنمرون على لون وجهي، وتقول لي بأنها عندما تزوجت والدي «كان عند قيام الليل يطلب من الله بنتاً سمراء ذات عينين كبيرتين وكحيلتين»
وأن الله اعطاهُ مبتغاه عندما اعطاهُ «ورد»
عندها علمت بأن ما كنت اسمعه كان حقيقة «بأن الرجل لا يشعر نفسهُ أباً إلا عندما يرزق بفتاة»، يا لجمال أبي اراد لي أن اتذوق حبه والأمان الذي سخرهُ الله لي بيدي أبي.
فبالرغم من أن الآباء التقليديين دائماً يريدون مولود ذكر يفتخرون به إلا أن

أبي اراد العكس فأبي «ليس كبقيةِ الآباء، إنهُ ليس تقليدياً».

أتعرفين..! لا زلت أتذكر عندما جئته بشهادة السادس ابتدائي وأنا ابتسم وأخبره بأنني متفوقة والأولى في صفي، احتضنني وقال حرفياً «كبرت ابنتي، أنهت الابتدائية.. احسنتِ يا ورد» وعيناه تلمعان.

- هل كان فخوراً لأنكِ انهيتِ الابتدائية؟

- نعم، وبدوري أكون سعيدة عندما يفخر بي، لم يكن من محبي الحفلات وجلب الهدايا وإقامة مراسيم التتويج لأياً منا

إلا أن قول «احسنتِ يا ابنتي، أو احسنتَ يا ولدي» تغني عن ألف هدية تحضر، واحسنتِ عن مجموع الحفلات التي تُقام، كانتا هذينِ الكلمتين تكفيان لأن أُقاتل لإسعاده.

احمدُ الله كثيراً لأنه جعلني ابنة رجل مثله وجعلني أناديه بأبي.

إنهُ يستحقُ ثقتي.

- حَقاً إنّ الآباء عظماء يا «ورد».

يخلقهم الله أقوياء ليكونوا جداراً لنا وملجأً.. فإن كان الوالدُ ضعيفاً سُحِقت عائلته.

- لا شكَ في ذلك..« فيجتمع الحنان والقوة» ليصبحوا فوارس في رُكن الحياة.

اتذكر بأنني كنت صغيرة يتراوح عمري بين الرابعة عشر والخامسة عشر عندما أراد أبي العودة إلى العراق لما حدث في سوريا الحبيبة من حروبٍ داخلية وصراعات وعدم توافر الطعام بسبب الحصارات التي تُشن.

كان يعرف أبي بأننا نحب سوريا كما لو كانت هيَ البلدُ الأول، فحقاً لأننا ترعرعنا في سوريا منذ نعومة الأظافر لا نستطيعُ تركها والعودة إلى حيث لانعرف وإن كان هوَ العراق بحد ذاته، فبالنهاية نحن لا نعرفه، لا نعرف كيف هوَ، وكيف سأترك كل هؤلاء الناس الذين أحبهم؟

لا يستطيع المرء أن يترك شخصاً يحبه وإن كان ليس من دمه فالحب لا يتعلق بالدم ولا يتعلق بمن هوَ اقربُ إليَّ

« مَن كان لي صديقاً أحببتهُ.. ومَن كانَ لي وطناً صرتُ لهُ تُراباً».

كنا أنا وأخوتي نجلس في غرفتنا، وإذ بنا نسمعُ صوت والدنا..

« جنة.. ورد.. عطر.. قمر.. بلماء.. عمر»

أتينا فقال بحُب: هل تريدون العودة إلى العراق؟

- قلنا جميعاً لا... « فضحك أبي»!

لماذا ألا تشتاقون لجدتِكم واعمامكم؟

- نشتاق يا أبي ولكن أنا أحب سوريا، لا أستطيع أن أتركها.

- حسناً، ألا ترين يا «ورد» بأننا لا نملك قطعة أكل في الثلاجة، ومن الظاهر لي بأننا سَنُحاصر قريباً، يجب أن نخرج من هنا يا ابنتي.

- حسناً كيف سنعيش هناك؟

ضحك أبي مرةً أُخرى على أسئلة ابنته المغفلة..

- سنعيشُ في بيتِ أبي.

- آه يا إلهي! حسناً يا أبي كما شئت افعل إن أردت العودة سنعود.

قالت نبأ مستغربة...

- هل كان رأيكم مهم إلى هذا الحد؟

- رُبما لم يكن مهماً ولكنه استشارنا في النهاية.. احترم عقولنا في النقاش رغم صغرنا فأنا كنت الكبيرة، وبالفعل بعد خروجنا من المنطقة التي كنا نسكن فيها بيوم أو يومين حُصِرت المنطقة من قبل قوات النظام واستمر الحصار لأكثر من أربع سنوات، فيا لحظنا!

«الآباءَ يشعرون... ويرون ما لا نستطيعُ رؤيته... إنهم يعرفون»

- أما زلتِ لاتحبين العِراقَ.. ألا زال عقدةً في وجهكِ «ورد»

ابتسمتُ متألمة!!

- العِراقَ وطنٌ تُخِمت تُربته دماءً.. فكيف لي ألا أحب وطناً تربتهُ مليئةٌ بالمسكِ؟

أنا لا أُحب الطريقة التي قُيدتُ فيها عندما جئت إليه، شعرتُ بأن حريتي سُلبت، الجميعُ يعاملني كأنني الفتاة الخاطئة في العائلة.. « تريدين كل شيء لا نريده»، كنت افعل هذا حقاً.. كنت اتخذ العناد سبيلاً لأنهم يزعجونني.

ارتدي هذا.. لا ترتدي ذاك إنهُ معيب « وإن كان داخل البيت» !!!!

أنا لا أستطيع أن أكون روبوت يحركني الجميع ويمحو شخصيتي لأكون فتاة مُهترئة قيدتها آراء الآخرين حتى لو كان الآخرين هم عائلتي التي تحبني.

كنت امشي على قانون « اعرض رأيك إن اعجبني طبقته وإن لم يعجبني احترمت وجهة نظرك وتجاهلته في حياتي لأنه لا يعني لي شيئاً».

لم يكن أحد يحترم وجهة نظري لأنني طفلة إلا أبي!

- والآنَ يا «ورد» إن أراد والدكِ العودة، هل تعودين؟

- بالتأكيد، لو كان أبي سيعود لكنت أول مَن ركب طائرة العودة، فإن حلب مدينتي الثانية التي ترعرعت في تربتها، لقد شرِبت من دماء مفصل قدمي في كل مرة وقعت بها وسماعها نداء أبي «اللهٰ» تكبرين وتنسين هيا انهضي!

ولعل هذا ما جعلني انهض في كل مرة من دون أن أبكي.

« سأكبر وأنسىٰ هذا الألم غالباً كما يقول أبي».

وهذا الوطن هو ذاته الذي صرت جُزءاً من تُربته الزكية.. فكنتُ كلما خرجت ،أتمشى أو للعب تقودني قدماي إلى كروم العنب وبساتين الزيتون وإلى شجرة التين التي تتمركز مسافةِ العشرة أمتار من سكة القطار الحديدية الذي كنت أخرجُ إليه كلما سمعتُ صوتَ مزمارِه ِفلا أجزعُ منه حتى وإن رأيته عشرات المرات في اليوم، كنتُ أنظر إلى عرباته المتباعدة وهيَ تمشي خلف بعضها أو تركض بالسرعة القصوى دون جدوى.

لا يصلنَ إلى بعضهن مهما حاولن الإسراع.. كنت انتظر أن يتلاقيا.. أن يصلا ولكن « لا جدوى من الانتظار فحقيقة القطار لا تتغير، لن تتلاقا عرباته».

أتعرفين يا «نبأ» القطار هو حقيقة الحياة، أو حقيقة ما نريدهُ جميعنا من الحياة.

فكُلنا يركض خلف السعادة.. خلف المسراتِ والأنس، ولكن السعادة ونحن عربات القطار المتباعدة مهما ركضنا خلف بعضنا لن نصل، لن نستطيع التنفس أو حتى النظر إلى بعضنا إلا أن نقف ونأخذ نفساً لنرىٰ على الأقل وجوه بعضنا.

« لرؤية السعادة يجب أن نترك الجري خلفها ونؤمن بأن الله خلق لنا رؤيتها وليس احتضانها».

- قيل بإنه كُتب علىٰ قبر بوكوفسكي «لا تُحاول»، وأظنكِ تقولينَ هذا ولكن بطريقة ورد!

ضحكتُ مطولاً..

- « حاول ولكن ليس إلىٰ الأبد، فستشيخُ بالمحاولةِ فقط!»

فهيَ الحياة خُلِقت لتكون هكذا .. تبعدُ الأشياء الحبيبةَ إلينا، وبدورها تُعَلِمنا الصمود والصبر حتى بدون تلك الأشياء الحبيبة.

- وأنتِ يا «ورد» كنتِ دائماً قوية وصبورة في أشد اللحظاتِ بؤساً أنا أرى ذلك.

سأبوحُ لكِ سراً ظلمكِ في مخيلتي.

ما كنتُ أتوقع بأنك تستطيعين النجاح في نهاية مطاف المدرسة، كنت أظن أنك تهذين عندما تقولين سأصبحُ مهندسة ابني الدور وناطحات السحاب، حقاً كنت أظن بأنكِ تهذين، كنتِ دائما حزينة وشاردةَ الفكر، نعم كنتِ أحياناً تتكلمينَ عن حلمكِ، ذاك الحلم الساكن في أعماق جنتكِ

وتقولين سأصل ولكن لا أحد يصدق ما تقولين فالجميع يضحك ويقول، ارتياد الهندسة المدنية صعبٌ ومتعب يحتاج إلى اجتهاد وانتِ مشردة من الواقع تحلمين بأحلامٍ فقط.

وأما الآن اتضح لي بأن والداكِ اعطيا لكِ دعماً وحُباً فلن تُديري بالاً للكلمات التي تحط من قدر اجتهادكِ أبداً، ولهذا أقول لكِ بأنكِ لم تتغيري أبداً منذُ اليوم الأول من التقائي بكِ، ظلت أحلامك متواصلة، بل وفي تطور، فأنتِ الوحيدة التي

استطاعت أن تستمر في أحلامها من دون أن تتأثر بالألم تأثراً سلبياً من بيننا نحن يا «ورد» وأنا سعيدة لهذا جداً.

- كيف لي ألا أصل وهذا الحلم الوحيد الذي ربتهُ أُمي معي مُنذُ نعومة أظافري.

كانت تحلم بأن تراني مهندسة، وكنتُ كلما جِئتُ إليها لترسم لي دُميةً أُلونها كانت ترسم لي بيتاً وشارعاً وحديقةً ذات أربعةِ شجرات، وتضعُ الحشائشَ والورودَ والطيور.

فَها أنا تلك مُنذ القِدم أرسم المنازل وارزعُ الأشجارَ والورود، فكيف لحلمٍ ترعرع في يدي وكَبُرَ بداخلي إلى أن اتخذَهُ قلبي عشيقاً أن يموت لأجلِ الألم.

كنتُ أتوسلُ الله يومياً، أتوسلُ في حضرته، أتوسلُ منهُ حُلمي.

-أي لولا تلك الرسومات لما نمى هذا الحلم إلى أن أصبح هوَ بحدِ ذاته شجرة ذات أغصانٍ متجذرة بداخلكِ؟

-كانت تلك الرسومات البسيطة هيَ أحد الأشياء التي اشتركت في بناء شخصيتي واتجاهاتي.

وأما الجزءُ الأكبر فكان «أبواي».. أحببتُهما.. فأحببتُ النجاحَ لهُما!

في إحد الأيام وأنا في طريق عودتي إلى المنزل، رأيت إمرأة كبيرة في السن تجلس على مقربةٍ منَ الرصيف وكانت عباءتها متسخة بشكلٍ مُريب على الرغمِ من أنّ شكلها كان نظيفاً ويداها بيضاء تعطيان للون الأحمر شيئاً، كانت تُمسكُ مسبحة وتردد وهيَ تبكي،« الحمدُ لله.. الحمدُ لله.. الحمدُ لله» ولكنها كانت تبكي بخفاء..

ظننتها فقيرة أو محتاجة فتقربتُ منها رويداً رويداً.

نظرتّ إليها فكان الزمان ماراً من وجهها لشدة تجاعيده.

وضعتُ بجانبها ما تبقى مني من النقود وسِرتُ متجهةً للوراء، ما أن سمعتُ صوتاً يكادُ من ظلمتهِ يتعثر بحبالهِ الصوتية..

- خُذي تلك النقود لستُ استجدي المال.. ولكنني استجدي عطف اللهِ ورحمته.

- أنا آسفة، لم أكُن أعرف.. فقط شعـ....

- شعرتِ بأني محتاجةٌ كالكثير غيركِ، ولكنني لستُ بفقيرة!

- إذاً ما بكِ يا خالة، لمَ تجلسين على عتبات الأرصفة؟

- فقدتُ طفلي يا ابنتي.

- اعتذرُ حقاً، ليجعل الله الجنة مثوىً له.

- ابني لم يذهب إلى القبر يا صغيرتي....

وبكت بحرقةٍ قطَعت أمعاؤهَا.

- أرجوكِ لا تبكِ....!

- فقدتُ طفلي عند زوجته، نفاني إلى الشارع بعد أن كان حضني موطنه الذي ترعرع فيه ونشأت يداه وجرِحت يدي، طردتني زوجته فوافقها يا

ابنتي.... وأنا اجلس منذ صباح اليوم «وقد كان الوقت مَغرِباً» وانتظرُ ابني الآخر ولكن يبدو أيضاً بأن زوجته منعته من ذلك، إنه لا يجيب على اتصالاتي.

- حسناً لا تحزني يا خالتي، سنجدُ حلاً توقفي عن البكاء.

ألا يوجد لديكِ بنات؟؟؟

- عندي بنتٌ متزوجة ولكنها لا تعلم، أخشى أن أُخبرها فاخذلُ مرةً ثالثة، فإن كان طِفلاي لا يريدونني فكيف بزوج ابنتي؟

- لا تقلقي ودعيني أوصلكِ إليها فقط ارشديني على الطريق.

أوقفت سيارة أجرة وركبنا سوياً إلى أن وصلنا منزل ابنتها.

طرقت الباب، ففتحتهُ فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشرة أعوام، كانت ترتدي بيجاما وردية وتفردُ شعرها الذهبي المجعد على كتفيها الصغيرين.

صرخت بسعادة عارمة «جدتي» واحتضنتها وقبلت يدها وهيَ تصيح.. أمي.. أمي.. جاءت جدتي يا أمي.

جاءت ابنتها لاستقبالنا، قبلت يد والدتها واحتضنتها وظلت مصدومة مما رأته من حال أمها.

نظرت بحزن بعينيها الكبيرتين اللتان تشبهان عيني المها في حسنهما فلقد نسيت أن ترحب بالضيفة التي جاءت بأمها بتلك الحالة. بقيت تنظر إلي لم انطق بكلمة فسألت والدتها:

- أمي ما بكِ، تبدين متعبة، لمَ عباءتكِ متسخة وعيناكِ تبكيان، أرجوكما قولا لي ما الذي حدث؟

- عزيزتي والدتكِ متعبة أظن بأنها لم تأكل شيئاً منذُ الصباح.

- أحقاً، يا إلهي!

اعتذرتُ من كلتيهما وهممتُ بالخروج.

عجباً لحال هؤلاء من البشر.. كيف لشخص يطرد والدته؟ كيف لهذه القسوة أن تتكبد في قلوب الأبناء؟

عجباً هل يجب أن نكون مستعدين للخيبات الكبيرة وغير المتوقعة من أقرب الأشخاص إلينا.. أن لا نحظى بنومٍ هانئ بسبب تلك الخيبات؟

أنا آسفة لوالدي ووالدتي، آسفة لكما حقاً، فما رأيته هذهِ الليلة كان شديداً أن يراه الوالدان

لن يثق الآباء بأبنائهم.

نحن آسفون على كل شيء، لأننا لم نقدر حق التقدير جُزءاً قليلاً من التعب ذاك، لأننا لم نشهده ولم نعرف كم تأملتم لنا وخذلنا آمالكم.

«نحنُ نأسفُ لكم»

أين العدلُ في الحُب، أين سداد الدين في التعب؟

«الوالدين أعظم ما قد يملك المرء.. أيعقل أن يتركان لزوجٍ أو زوجة أو لدينارٍ ذاهب»!!

١:٢٢ ظُهراً

٨/١١/٢٠٢٠ م

اليوم هوَ اليوم الذي ستعلن فيه القبولات الجامعية لهذه السنة.

خرج وزير التعليم العالي والبحث بمقابلة مباشرة تم تغطيتها من قبل بعض قنوات الاخبارية العراقية وقنوات التلجرام يقول فيها ما نصه:

- أودُ أن أُبارك لأبنائي الطلاب على نجاحاتهم الباهرة، هذا العام ارتفعت قبولات الجامعات العراقية بعشرة درجات عن العام السابق لما في هذا

العام نجاحٌ باهر من قبل طلبتنا الأعزاء.

وأخذ يلقي تخصصات الطب وكل تخصص مع معدل القبول في الجامعات شتى، ومن ثم أخذ يلقي أسماء الطلاب الأوائل كافةً..

أما عني فحقاً يئستُ من الهندسة في اللحظة هذه لما سمعته، فإذا كان العام الفائت قبول الهندسة ما بين الثمانين وتسعةُ وثمانين فستكون هذه السنة من التسعة وثمانون إلى الستةَ وتسعون..

«الويلُ لي.. أَخسرتُ؟».

أخذت أبكي بكل يأس وأنا أبحث في قنوات التلجرام عن رابط القبولات المركزية، وأنا أرى قلوب عائلتي وما تحتسيهِ من جُرعاتِ الخوف ولكن صمودهم كان قوياً.. اسمعُ جدتي تقول: « اذكري الله يا ورد فإن الله يفعل لكِ الأفضل دائماً».

كن معي يا الله اكادُ أتفطر من شدة الحزن.

جاءتني رسالة من إحدى زميلات الصف تقول فيها:

- هل استطعت الوصول إلى قبولكِ؟

- لا، لم أستطع!

ارسلت لي ملف القبولات وقالت:

- أعرف بأن هذا القسم لا ترغبين به، ولكن القسمُ الذي تم قبولكِ فيه هوَ قسمٌ جميلٌ أيضاً، وسيكون لكِ مستقبلاً زاهر فيه يا «ورد».

صمتُ للحظاتٍ وأنا أُكررُ قراءة ما أرسلت لي، تجمدت الدموع في عيناي وتوقف الهواء بالدخولِ إلى جسدي.

يناديني الجميع.. كأنني انفصلتُ عن العالم وكأن جنياً تلبسني وبتُ صامتة.

تقول أمي:

- مابكِ يا وردتي؟ أخبري أمك ..!

صمتٌ بصمتٍ بصمتْ.. سكنَ العالمُ في سكوني لا أسمعُ صوت أحد، اشخاصٌ يتحركون أمامي فقط
تتباعدُ شفاههم عن بعضها وترتطِمُ ثانيةً.
- ورد.. ورد.. ما بكِ يا ورد؟ ... اعطني الهاتف.
قالت قمر..
- انظري يا «قمر» انظري ماذا قالت. أخشى دخول الملف.
- أعطني لأرى.
بعد أن بحثت «قمر» عن اسمي في قائمةٍ يتضمنها مئة اسم أو أكثر تقريباً.
- مكتوبٌ هنا «ورد» فقط وليس الاسم الكامل.
- ماهو القبول!؟
- برمجة حواسيب!
بكيتُ وبكى قلم أُمي!
- أنتظرِي يا «ورد» إنه ليس الإسم الكامل، إنه غير واضح
- لا يوجد في صفوفنا المنتهية واحدةٌ يطلق عليها «ورد» غيري!
- هذهِ القائمة لا تقتصر على مدرستكِ، إنها أسماء الفتيات اللاتي قبلن معكِ في نفس القسم.
لندخل رقمك الامتحاني في مؤشر البحث سيخرجُ اسمكِ فوراً من بين هؤلاء الأسماء.
جئتُ ببطاقتي الامتحانية وأعطيتها «لقمر»، لأن يداي ترتجفان لا أستطيعُ إمساك شيء.
أدخلت «قمر»: رقمي الامتحاني فخرج اسمي بالمقدمة..
صرخت «قمر» بـ «ورد».
- أعطني البشائر يا ورد..

وأنا ابتلع دموعي بحرقة..

- ماذا..؟

«ورد عبدالعزيز» تم قبولكِ في جامعة بابل كلية الهندسة

قالت أمي:

- ستصبحُ ابنتي مهندسة، يا لابنتي القوية!

قال أبي:

- احسنتِ يا «ورد»، الحمدُ للهِ وإن شاء الله فعل لو الدنيا وقفت في وجهكِ، استجابَ اللهُ تلكَ المناجاةَ يا «ورد».

لم أعرف ماذا أفعل فقط سجدتُ للهِ حُباً وامتناناً، سجدتُ وكانَ المطرُ يتساقطُ عليَّ رِضاً، امتزجَ بدموعي مواساةً.

أتسمعني يا الله؟ ..

شكراً لك، الحمدُ لك.. لقد سَمِعت ذاك الدعاء الذي نسيته أنا في لحظةِ الحزن تلك.

اعتقدُ بأن الله يحقق المعجزات لنا لم أتطرق لاختيار جامعة بابل اطلاقاً في استمارة التقديم ولكن عندما قرأ أبي الاستمارة أخبرني بأن اضع جامعة بابل ضمن الخيارات.. فوضعتها ضمن الاختيار الثامن الذي سبقته بوضع الهندسة المعمارية وبقية اقسام الهندسة في جامعة البصرة.

فكأن أبي شعر! وكأن غريزة الأبوة تجاهي أخبرتهُ بذلك، أو أن الله جعل حلمي جاري التحقيق عن طريق أبي.

فعلى كل حال استجاب الله وقد جعل أبي سبباً لذلك.

لغيركَ ما مددتُ يداً وغيركَ لا يفيضُ ندىً.

وليس يضيقُ بابكَ بي فكيف ترد مَن قصدا

صارتُ سعادة العالم بأسره تعيش في قلبي، نسيتُ في سعادتي كل ألم اضحى بي

ومات الشوق داخلي لهذا اليوم.
لا تيأس أبداً، وتذكر أنه في كل ألم زاوية وردية مخبئة بين أيامه.. ابحث عنها، فتجدكَ هي.

جاءتني مريم متلبسة السعادة:
- مُباركٌ لكِ يا «ورد» اشعر بسعادة وجهكِ كأنكِ امتلكتِ العالم، واتمنى أن تكتمل جميع رغباتكِ المستمرة لمقاومة حزن الحياة.. واتمنى حقاً أن يكتمل حلمكِ الآخر، كأن أقرأ يوماً كتاباً عُلِقَ عليه اسمكِ.. حقاً اتمنى ذلك.
- أن أصبح كاتبة؟؟ تعرفين بأني أميلُ لكتابة القوافي الواحدة والشعر الوجداني على وجه الخصوص، ولكني لستُ بتلك التي من الممكن أن تنشر أشعارها فإني أخاف هذهِ الخطوة، فالشِعر يريد أهله وأخشى ألا أكون اهلاً له.
- نعم، فجميعنا نخاف في البداية، ولكن لا تستسلمي وواصلي الكتابة يا «ورد».
أتتذكرينَ هذا الشعر أو كما أطلقتِ عليه أنتِ «الكلمات ذات القافية الواحدة»؟ عندما شاركتِ به في مسابقة أفضل كاتب في صحيفة «وطن» ولم تخبري أحد إلا عندما جئتِ بفوز المركز الثاني وأنتِ لم تكوني متوقعة أن تفوزي على عددٍ كبيرٍ من الكتاب، ولكنكِ إن تدربتِ وسعيتِ فستصبحينَ الأولى إن شاء الله تعالى.
- اتقصدين:
قبل ِ أن تفيقَ الجُلَنارَ ويبدأُ العشاقُ بالتلاقي

وقبلَ أن تمسحُ الغيومَ الشمسَ ليصيرَ المطرَ إلهام الأماني
تولت الدُنيا بآمالِيَ الكُلى ورُحتُ أُعاني المقاسي
أخذتني النائباتُ أخذَ سيلٍ فما أستطعتُ محاربة المآسي
أَأقولُ للسهامِ توقفِ أم أتوسلُ الرامي أن يعي عميقَ إصابتي؟
أَللنزيفُ أشكو نهايتي أم لتناثرِ الروحِ أُعطي إفادتي؟
كيف أنجو من حريقٍ قتلَ الأزهارَ ونامَ على رمادِ الأزهارِ؟
فقبلَ أن تفيقَ الجُلَنارَ حُرِقت وقبلَ أن يبدأ الجوريُّ بالأشراقِ
وقبلَ أن يكونَ للتوليبِ عبقاً وأن يكونَ للياسمينَ بياضِ.

- نعم، لكن اعرفي جيداً.. عندما تجيئينَ للكتابة لا تهملي أوراقكِ بل أحبيها.

لا تكتبي شيئاً لستِ مقتنعةً به أو لا يُعبرُ عن شعورِكِ الداخلي، لا تُحَمِلي أوراقكِ شعوراً كاذباً وشيئاً تافهاً، فالأوراقُ تشعرُ يا ورد، تشعر بكلماتكِ الجميلة وإن كانت مؤلمة، فإنّ الأشجار تموتُ من أجل كتبنا يا «ورد»، من أجل
أن تشعر ما سَيُكتب على ممرات أوراقها وتبارِكُهُ بدموعها الخفية.

وبما أنكِ تحبين تلك الأشجار فلا تسمحي أن ترمى أوراقها عبثاً، وتحولُ أسطُرها إلى النسيان في زوايا المكتبات، فأنتِ تستطيعينَ يا «ورد»، بإمكانكِ فعلُ هذا وأنا أثق تماماً بتلكَ القدرةِ المخبئة في قلمكِ ولأنني أعرفُ جيداً بأنكِ لا تستسيغينَ الكتابة إلا في القلم وتنبذينَ أجهزة الهاتف وشاشات الحاسوب، ولأنكِ تعتقدينَ أنه أعظم شيء قد خُلِق، وأن الورقة تكملُ عظمته فكلاهما بدونِ الآخر لا شيء.

- أليسَ الله أقسم ب»ن»والقلم وما يُسطَرُ به؟

ألم يأتي بعد القسم نفي جنون« محمدﷺ»، عندما اتهمه الكفار وحاشاهُ

مـن الجنـون آنـذاك.

« ن وَ القَلَمِ وَمآ يَسْطُرُنَ (١) مَآ أَنْتَ بِنِعمَةِ رَبِّكَ بِمَجنوَن (٢)».

فـأيُّ شيء هـو القـلم ليقـسمَ اللهُ بـه يا «مـريم»، فلعـل مـا يُطارحـه مـن كلمـات عظيمـة جعلتـهُ عظـيماً لينـفي جنون«محمـد ﷺ». تريدينـني أن اسـتبدلهُ بآلةٍ رقميـة تملؤهـا حـروفٌ مـشردة.. إذاً أين العـدلُ للشـجر؟ ألم تقـرأي قصيـدة أحمـد شـوقي وهـو يصـفُ القـلم؟

- لا...!

حسناً فلتسمعي إذاً:

جَسَّ الطبيبُ خافقي

وقالَ لي:

هل ها هُنا الألم؟

قلتُ لهُ:

نعم، فشقَّ بالمشرطِ

جيبَ سترتي وأخرجَ القلم

هزَّ الطبيبُ رأسهُ ومالَ وأبتسم

وقال لي:

ليسَ سِوى قلم!!

فقلتُ:

لا يا سيدي.. هذا يدٌ وفَمٌ

رصاصةٌ ودم

وتُهمةٌ سافِرةٌ تمشي بلا قدم.

القـلم هـو يـدٌ وفم يا «مـريم»، فانظـري إلى حـب النـاس سـابقاً وانظـري لنـا اليـوم!

عندما فقدنا القلم وصار كل شيء يُرسل ويحفظ باللوحِ الرقمي، أصبحَ الحب تافهاً وسهلاً إلى حدٍّ مريب فقد كان الناس حينما يرسلون مكاتيبهم ينتظرون أسابيع ولربما أشهر ليروا ما قد كتب في الرسائل أو لقراءة خبرٍ منتظر.. يكون الشوق لِـ أحوالهم أكبر وتخلد مكاتيبهم الأحب إلى قلوبهم والأقرب إليها.

فمثلاً أمي كانت تحتفظ بمكاتيب أبي إلى هذا اليوم منذُ أكثر من ثلاثة وعشرينَ عاماً.. كانا يُخبئانها بإحدى الصناديق الصغيرة في إحدى زوايا الغرف المليئة بالحب..

لم أكن أعرف أن هُناك رسائلٌ قديمة وجميلةَ المعنى إلى يومنا هذا «مُخبئة بحب» جذبني ذات مرة صندوق قديم لطيف فقررتُ أن أدنو منهُ شيئاً قليلاً لأرى منذ متى هذا الصندوق في منزلنا ولم أره قط!

لم أمكث كثيراً فدنوت أكثر حتى فتحته، ما أن وجدتُ فيه أوراقاً صفراء قديمة «أُحبُّ الأوراق الصفراء القديمة».

فتحت تلك الأوراق فوجدتها رسائل أبي وأمي المتبادلة منذ فترة خطوبتهما، وكان هناك رسالة لم أنساها أبداً، قال أبي:

- إلى سَماء

السلامُ عليكم..

كيف حالكِ يا سَماء، وكيف حال الأهل؟ خالتي كيف حالها؟ أتمنى أن تكون بخير دائماً..

وكيف حال دراستكِ أنتِ إن شاء الله بخير وفي أحسن حال؟

أنا أعمل الآن في السعودية واسكن عند خالتي ندى، وعندما أعود إلى العراق سنتزوج يا سَماء الحبيبة.

سلامي إليكِ وإلى أخاكِ العزيز زيد وحور وشروق وقبلاتي الكبيرة إلى خالتي.

من الحبيبِ عبد العزيز.

كان ينتظر أبي لتعبر رسائله دول وحدود لِـ تصل إلى قرة عيني أمي.

كانت لهفة الإنتظار هي الأجمل وكأن الذي يخطه القلم كل أربعة أو خمسة أشهر أو أكثر من ذلك حتى.

هوَ شيءٌ قليلٌ من حبٌ كبير ولكن باحساس تستشعِره العيون ويصبحُ القلبُ في عُرسٍ طروب.

صحيحٌ بأن التطور أفادنا وجعل أحبتنا أقرب إلينا ولكن جعل مشاعرنا خرساء أكثر من ذي قبل، صار الحب مخيفاً وسطحياً إلى هذا الحد.

«أعتقد بأن التكنولوجيا أرهقت الحب لا ساعدته»

- أتعتقدين أن القلم عظيم لتلك الدرجة؟؟

- إنه أول ما خلق الله..

قال الصحابيُّ عُبادة بن الصّامت:-« سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلقَ اللهُ القلمَ فقال له: أكتب قالَ ربِّ وماذا أكتب؟ قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.» *حديثٌ صحيح

إنه القلم يا «مريم»، هل يُقايض بالآلات الرقمية؟

- أعتقد أن القلم سيجعلُ منكِ كاتبة وسيجعلُ منكِ مهندسة لأنكِ تصفينهُ بالمعجزة فحقاً عليه منحكِ الحُب والحلم.

- يكفي أن يمنحني الكتابة عندما تثقلني الهموم، فالكتابة هيَ طِبابةُ المتألِمِ المخذول يا صديقتي.

يومٌ جديد

١:٣٠ فجراً

بـدأتُ مُسـبقاً بتَحضـير أوراق التسـجيل الخاصـة بالجامعـة مـن صـور و استنسـاخات وحـتى كفيـل، لأن الجامعـة تريـدُ كفيـلاً موظفـاً للتسـجيل في الجامعـة.

سأُسافر برفقة عمي إلى مدينة بابل لأنهُ سيقوم بكفالتي.

كنـتُ متحمسـة جـداً ولكنـني متـوترة أيضـاً.. بـل متـوترة بشـدة.«كنتُ خائفـة وسـعيدة» فـكل الـذي أفكـر بـه أنـني أريـد أن أرى جامعـتي..

ركبـت السـيارة مـع عمي ورائحـة السـعادة كالشـذا الفـواحُ مـني، مـا بـينَ الدقيقـة والدقيقـة أنظـر إلى هاتفـي.. إلى سـاعتي.. وإلى لوحـات المحافظـات التـي عبرتهـا، ذي قـار.. سـوق الشـيوخ.. ومـن ثم الديوانيـة إلى أن وصلنـا إلى بابـل، تفتحـت الزهـور في وجهي مثلمـا كان النخيـل متفتحـاً في بسـاتين بابـل، ومثلمـا تفتـح الشـفقُ في سماءهـا.

سألني عمي:

- هل أنتِ جائعة؟

- نعم، جائعة كثيراً يا «عمي»!

ولا أكادُ أُخـفي بأنـني أكلتّ في مطعـم الإسـتراحة، ولكنـني لم أكُـن جائعـة بـل كنـتُ خائفـة ومتـوترة وكُنـت بحاجـة لـشيء أُلهي بـه تـوتري فيصمـتُ الـكلام المتنـاثر بعقـلي!

طلب لنا «عمي» الطعام وقال للنادل:

- هل يوجد حساء؟ مهندستنا الصغيرة تشعر بالبرد.

شعر عمي بِتوتري حقاً، يا إلهي هل يظهر للجميع بأنني أرتجف؟

كأنـه كان يقـول لا تخـافي سـيكون كل شيء عـلى مـا يرام.. سـنكمل التسـجيل

اليـوم بإذن الله... لا تقلـقي لـن يطـردوكِ.

غالبـاً مـا تكـون الوجهـةُ مهمـة ولكـن الأهم هـوَ مـن يمسـكُ بيـدك وأنـتَ متجـهٌ إليهـا، مَـن يُخفـف وطـأةَ الخـوفِ التي في قلبـك. فمـا فائـدة أن تكـون متجهـاً إلى حلمـك تائهـاً في أعماقـك لا يوجـد مَـن يُثنـي عليـكَ الحُـب حتى!

بعـد أن تناولنـا طعامنـا خرجنـا إلى الطريـق ولكـن لا نعـرف أين سـنتجه، لأن أقدامنـا لم تطَـأ هـذه المدينـة أبـداً.

مـن بعيـد رأيـتُ امـرأة مـع ابنتهـا تقـف تحـت إحـدى المجسرات وترتـدي عبـاءةً فضفاضـة كما النسـاء العراقيـات القديمـات، اقتربـتُ منهـا فابتسـمتْ قبـل أن ألـقي عليهـا السـلام، وبـدوري ابتسـمتُ مـن غـير إرادة وألقيـتُ عليهـا سـلاماً:

- السلامُ عليكِ يا خالة.

- وعليكِ السلام.. أهلاً

- أودُّ أن أعرف كيف سأصل إلى جامعة بابل من هنا؟

- هل أنتِ طالبة؟

- نعم، أنا كذلك.

- حسناً أنظري إلى ذاك الشارع..

وأشارت بأصبع السبابة إلى الشارع الأمامي على بعد مئة متر تقريباً.

- أدخـلي في مـرآب السـيارات وستجدين حافلات تذهـبُ إلى الجامعـة، أركـبي إحداهـا و سـتصلين إلى جامعتـكِ بأذن الله.

- شكراً لمساعدتكُ يا خالة، أنني ممتنةٌ منكِ.

- ليفتح الله درباً لكِ يا ابنتي، كان هذا واجباً لي.

ذهبـتُ إلى عمي الـذي بـقي بعيـداً ينتظـرني فأخبرتـه بمـا وجهتـني بـه هـذه المـرأة فأجابـني مسرعـاً «إذاً هيـا».

وصلنا إلى الجامعة..«أخيراً».

دخلت إلى غرفة الطلاب قبل الوصول إلى الحرم الجامعي، عرضت عليهم قبولي الجامعي وهويتي الشخصية وقابلت عمي من الجهة الأخرى فقال لي عندما رأى فتاة تمشي بقربنا:

- أسأليها عن مكان كليتكِ فإن بقينا نمشي ونبحث لن نجدها في تلك الجامعة الضخمة إلا بعدما ينتهي الدوام، وربما نستمر ليوم آخر!

اتجهت مسرعةً لسؤالها:

- لو سمحتِ!

- أهلاً..تفضلي

- ممكن تدليني على كلية الهندسة المدنية؟

- أكيدٌ بالطبع، هل أنتِ طالبة مرحلة أولى؟

- يبدو عليَّ هذا إذاً!

ضحكت وقالت بالطبع يبدو، لا عليكِ كلنا هكذا في البداية لا نعرف أي شيء، تائهينَ إلا من أسمائنا.

سأُصِلُكِ الآنَ إلى الإدارة ومن ثم ستفهمين تدريجياً أين ستذهبين وماذا ستفعلين.

- سَلمتِ.

بالفعل وصلنا إلى هناك، دخلتُ وسألت عن كل شيء أحتاجُ معرفته فوجهنا أحد الأساتذة أو الدكاترة لم أعرف من يكون!

- اذهبي إلى كلية هندسة الميكانيك القاعة الثامنة في الطابق العلوي هناك ستكملين كل شيء.

ذهبنا واكملنا كل شيء والحمد لله ولكن توجب علينا انتظار ملفاتنا وتدقيقها من قبل اللجنة فيما إذا كانت ناقصة أو مكتملة.

بعد مرور مدة وجيزة لا تتجاوز النصف ساعة، صاح باسمي الأستاذ عامر:

-«ورد عبد العزيز» يا لهُ من اسم جميل يا ورد

- أشكرُ حضرتك.

- بإمكانكِ الذهاب إلى قسمكِ وأخذ الإيميل الجامعي والمصادر الدراسية لقد انتهت إجراءات تسجيلكِ.

خرجتُ وعمي بحدود الساعة ١٢:٤٥ ظُهراً، وذلك لأن إجراءات التسجيل أخذت وقت الصباحِ من بدايته إلى نهايته.

وأنا متجهة إلى الكلية كانت خطواتي خفيفة كما العصفور في السماء، ابتسمُ طوال الطريق مَن يراني يحسبني مجنونة.

كانت سعادتي ليست إرادية وحبي ليس إرادياً..

نظرت إليها.. إلى اللوحة المعلقة أعلى البناية.

وقفتُ.. وقفتُ فقط لأنظر إلى تلك اللوحة وإلى ذاك الحلم الذي ظننتهُ مستحيلاً في لحظةٍ مخيفة.. انتزع البكاء خوفي، انتزع ألمي.

وقفتُ واخبرتها بعينين دامعتين: «لا أدري إن كان حبي لكِ مبالغاً فيه ولكن اظن بأن تحقيق الأحلام هو شيءٌ من هذا القبيل وهذا الإحساس، تشعر بأنك أنجزت شيئاً فريداً وشيئاً مليئاً بالحب، فَالحلم يعني الحب».

سأُعبرُ عن امتناني لكِ بأكثر شيء أحببته في هذا العالم، سأُهديكِ وردة واضعها على إحدى تلك المقاعد المحاطة بالشجرِ حولك ولكنها ليست أي وردة إنها إحدى الورود التي قطفتها لكِ من بستان قلبي.

أعرفُ بأن جدرانك تشعر بها!

انتبه إليّ عمي في هذه الآونة وقال:

- هيا لنأخذ لكِ صورة أمامها.

ابتسمت..

- ولكن بدون فلتر أرجوك، لأنني أكره تزوير الفلاتر!

- أحمق من يصورك بفلاتر ويخفي جمال اللحظة في عينيكِ وكيف لدموعكِ أن ترتجف من فوهة السعادة التي فتحت في قلبكِ يا «ورد».

أرسلت صوري إلى أخواتي وكتبتُ تحتها: « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ».

أول مَن رآها قمر فاتصلت مسرعة..

- هل انتهت مراسيم تتويج الأميرة «ورد»

- يالكِ من محتالة.. نعم انتهيتُ من التسجيل يا أجملُ أُختٍ في كوكبي وأنا في طريق عودتي إلى المنزل. قبلي أمي وأبي.

أُحِبكِ.

أغلقت الهاتف وأنا في طريق عودتي إلى حيثُ أنتمي.. إلى عائلتي.

قضيتُ طريق السفر وأنا نائمة ومتعبة من تراكم التوتر على قلبي، وإذ بي استفيق على صوتٍ ليس بغريب. مَن هذه ِ وكأنني أعرف هذا الصوت!

التفتُ التفاتةً بسيطة فرأيت إحدى مدَرِساتي في المدرسة المتوسطة الست «رويدة» مدرسة اللغة العربية..

وكانت تجلس في المقعد الخلفي، كانت ترتدي كمامة على وجهها الذي أحفظه جيداً.

لم تعرفني هذا واضح! ولكنني ألقيت عليها تحيتي.

- السلام عليكم، ست رويدة أليس كذلك؟

تبسمت شيئاً طفيفاً:

- وعليكم السلام، نعم أنا هي!

- ألم تعرفيني؟

- لا والله لم أعرفكِ! مَن أنتِ؟

- أنا ورد عبدالعزيز، إحدى طلابكِ القدماء في الصف الثالث متوسط (التاسع).

- أهلاً عزيزتي ورد، كيف حالكِ؟ ولكن كيف عرفتني وأنا أضع كماماً؟

- لقد أكملت اليوم تسجيلي في جامعة بابل وسأعود حالياً إلى البصرة.

- آه حقاً، وأنا جئت مع ابن أخي ليكمل أيضاً التسجيل في الجامعة، ولكن ماذا قُبلتِ في أيِّ قسم؟

ابتسمت وصمت لثانية أو أكثر!

- هندسة مدنية.

- آه حقاً!

مُتَفاجئة...

- اومأت رأسي بالقبول..

الحمدُ للهِ على ما وهَب لي.

- ما شاء الله عزيزتي.

وعم الصمتُ بيننا فلعلها تذكرت ما قالتهُ لي.. ذاك اليوم الذي نهرتني به قائلة «لن تنجحين أبداً، لن تستطيعي النجاح من الصف الثالث، فقط لأنني لم أُلقي القصيدة بطريقةٍ جيدة!

فجادت عليَّ بهذا القول اللئيم وعلى الرغم من أنني جئت المدرسة طالبة جديدة قادمة من سوريا لا تعرف من المنهاج شيئاً ولا تفهم ما تشرحين حتى لو كنتِ نابغة في الشرح، لأنني أمضيتُ حياتي استمع للهجةٍ سورية وأتكلم بهذه اللهجة أيضاً ومما يتعين من عدم الفهم المطلق لِما تتحدث به.

كانت تعرف هذا جيداً لأنني أخبرتها ولكنها ضلت تضرب سوط (الكسل

والغباء) كما كانت تقول لي!
فعلى الرغم من أنني أُحاول الاجتهاد ولكن كان كل شيء قد تغير.
اختفت بيئتي وأنا الآن في بيئة لا اعرف عنها شيئاً ولا أُحِبها.
أنا لا أكرهكِ يا آنستي ولكن لن أنساكِ لأنك ساهمتِ في تحفيز حلمي واستعدادي له بدون أن تشعري بذلك.
فأنا فتاةٌ تكبر بالانتقاد الذي يسخر من أحلامها وقدراتها وحبها.
بعدكِ حاولت تطوير ذاتي وقراءتي ومفرداتي بالكتب، وحاولت تطوير قواعِدي بالدراسة و حتى إلقائي صار أفضل من ذي قبل، أفضل مما عهدتها أنتِ يا آنستي العزيزة.
صرتُ أُحب اللغة العربية بل وأعشقها لأنها تجمعني بكلماتي اللامتناهية وذات المفردات المتعددة، وحتى أنني أحببتُ الكسرات لأنها تجعلني أُنثى وتاءُ التأنيث ما عادت ساكنة كما كُنتِ تقولين دائماً.
فمنذُ أن عرفتني وهيَ تصيح أكتبي..
(طَغتْ.. تَجبرتْ.. تمادتْ.. افترتْ.. افتعلتْ.. توشحتْ.. توردتْ.. تمايلتْ)
تَعِبت من سكونها فجئتُ أكتب كونها خطِرة تبحث التحرك في مفرداتها الساكنة.
إن أتتكَ التاءُ بتمادي مفرداتِها اتركها فلا تحبسها بسكونها القتالِ
وإن رأيتها تجبرتْ أو افتعلتْ فلا تُظهِر أيِّ تجبرٍ أو افتعالِ
لأنها ليست فقط تاءٌ تراصفتْ بعدَ حروفٍ وشقت طريقها بالنضالِ
هيَ أنا التي عرفتْ مُرادها وتوشحتْ وتمايلتْ وتوردتْ على أغصان
هيَ أنا التي افترت على الآلام بصمودها وطغتْ بقلبٍ رائدٍ على المحتالِ.

٢٠٢٠ م

٩:٥٤ مساءاً

وصلنا إلى البصرة، كنت نائمة، أو شبه نائمة.

قال عمي بصوت هادئ:

- هيا يا «ورد» لقد وصلنا.

رأيت ست رويدة تذهب بعيداً خلف سيارة الأجرة لنقلها إلى حيث بيتها، فركضت خلفها مسرعة وصحت:

- ست.. ست رويدة!

إلتفت مبتسمة..

- شكراً على كل شيء قدمتِهِ من أجلي أو من أجلنا

- لم أفعل شيء سوى واجبي يا «ورد» !

- بل فعلتِ أكثر ولكنني أتحفظ على قوله.. هل تحتاجين مني شيئاً؟

- أحتاج اجتهادكِ لتكونين مهندسة محترفة تفيدينَ أولادي و تنعشين وطني، وأنا أعتذر إن بدر مني تقصيراً.

ابتسمتُ بلطف على آخر جملة سمعتها منها وأردت أن أُبدد شعورها أو تذكرها للشيء القديم فأخبرتها:

- حاشا، فكل ما بدر منكِ جعلني طالبةً للعلم أفضل، وإن شاء الله يريكِ الله ما أُحققه بفضله ومن ثم بفضلكِ.

اسمحي لي.. ودمتِ في مأمن.

- ليكن الله في عونكِ «ورد» .. مع السلامة.

ما أن وصلتُ إلى البيت فكان الجميع بانتظاري وقد كان يوم الأحد وضجيج الأطفال يعلو بالشارع شيئاً لطيفاً!

استقبلتنا جدتي بسعادةٍ ورِضا.

-«ها يمه شلون چانت سفرتكم الصغيرة، الحمد لله على السلامة»

قبلت يدها ورأسها:

- الله يسلمك، نحن بخير والحمدلله، شكراً لكِ يا جدتي أسأل الله أن يجعل عمركِ مديداً بصحةٍ جيدة ودُعاءٌ مُستجاب.

- حبيبتي، العشاء جاهز، هيا اغسلي يديكِ أنتِ وعمكِ لنسكب العشاء.

في هذهِ اللحظة جِئنّ أخواتي «قمر وبَلماء وعطر وجنة» وصرخنّ بصوتٍ واحد.

- هيييي جاءت أختنا المهندسة..

وتجمعنّ فوقي.

حقاً لا يستطيع المرءُ منا العيش بدون عائلته وإخوته، فأخَواتي هنّ أجمل قدرٍ وهبهُ لي الله من بعد والديّ فقد كان الرابط الذي يجمعنا أكبر من روابط الدم، كانَ «رباط الحب»، رباط الشوق الذي يقع في أعماقنا إن خرجت إحدانا تتبضعُ فقط.

حقيقةً كنت أخاف أن أخسرهُنّ كثيراً، وكنتُ كلما نظرتُ للعالم الخارجي كيف أن الأخوة الذين كانوا يتقاسمون الخبز بينهم ويتقاسمون البطانيات، لا يأبهون لبعضهم بعد أن أسسوا عائلاتهم، وشغلتهم الحياة أو بحجة أن فلان لا يسأل فلا أسأل أنا.

أو مَن يفرقهم ميراث أب أو أم، كنت أخاف أن نهجر بعضنا بعد أن تخرجنا الأقدارُ من بيت أبي أو عرش أبي.. أو من «وطَن» أبي، فنبقى لا نعرف عن بعضنا شيئاً سوى أشكالنا القديمة وأسماؤنا التي تعودنا عليها معاً.

أن تفصلنا التكنلوجيا الهائلة وتطور الحياة ومصارِعها الكثيرة حتى تنسينا أن

نهاتف بعضنا لا أن نجتمع في نهاية الأسبوع أو نزوره أو نطمئن على قلبه!
اعرف فتاة قالت لي ذات ليلة:
- ستتزوجين وتنسين.. تنشغلين عن الجميع وحتى عن نفسكِ!
كانت إحدى الأشخاص الذين أعطوا لحياتي سلبية مزعجة.
تُرعبني هذه الكلمات، أخافها وكأنها تلتهم سعادتي.
لا أريد الانشغال عن أبي وأمي وإخوتي الذين أنتمي إليهم، والذين تنتمي إليهم كل قرابين سعادتي وإمتناني.
ولهذا كنت دائماً أذكر الجميع بصلة الرحم وأهميته عند الله وكنت أقول قول النبي ﷺ «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة».
وأن مهما تكالبت الهموم يجب أن تبقى أيدينا متصلة وقلوبنا مستشعرة.
ومهما حاولت الدنيا إبعادنا نحاربها بالحب الذي بُعِثنا عليه دائماً، فإن أردنا نحن ذلك لا تستطيع المشكلات أن تشق طريقاً بيننا، ولأننا نحب والدينا سيبقى رباط الحب هذا «إن شاء الله»
وأيضاً كنت أُعلم إخوتي دعاء إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ اجعَلنِي مُقيمَ الصَلاةِ وَمِنْ ذُرِيَتي رَبَنا وَتَقَبَل دُعاء»
لأنني كنت أعرف حقيقة المعرفة بأنّ الصلاة تطهر قلب الإنسان بشدة مادامت تقدم بقلب خاشع وخاضع لله مليءٌ بالإيمان، وعندما يكون القلب هكذا لا تستطيع الأحقاد والأضغان أن تستقر فيه وأن تبعد الأخوة عن بعضهم البعض لأي سببٍ كان.
أعرف عائلة حاولت أن تمنع أختها من حق ميراث أبيها أو بعبارة تحمل الأصح في طياتها «لم تعطها حق التصرف في ميراثها ».
كانت هيَ الأخت الكُبرى لهم جميعاً، كانت كالأُم لهم.. حقاً منذ صغرِها كانت الأم الثانية لتلك العائلة قبل زواجها.

أتذكر جيداً كيف أنها كانت في حاجة النقود، إذ أن أولادها وأحفادها سَيُشردون إن لم تؤمن هذه النقود لحمايتهم من حرارة الصيف وبرودة الشتاء، أنا أقر بأن أولادها كانوا بالغين ولكنهم أيضاً ليسوا من ذوي الدخل العالي الذي يكفي إيوائهم وشراء منزل يقي أطفالهم وزوجاتهم.

بكل أسفٍ وخوف إخوتها منعوها من حق البيع وبدون أي تعويضٍ منهم!

آذوا كرامتها وكرامة أولادها (لأنها طالبت بحقها الذي ورثتهُ من أبيها)!

كنتُ أراها تجلس تحت إحدى نخيل البصرة وتبكي.

لم أكن أعرف إن كانت تبكي على عدم إيجاد الحل أم كانت تبكي لأجل والدها و والدتها، أم أنها كانت تبكي إخوتها التي كانت لهم أُماً.. لم أكُن أعرف حقاً.

سُرعان ما أجاب الله لتلك المرأة فآواهَا وأيدها وأعطاها من المنازل أريحا ومن الرزق أوفرا، دون أن تمد يد العوز ليدٍ أخرى في الأرض لأنها مدت يدها لِكريمٍ يملك الأرض كلها.

ولكن ما صدمني حقاً أنها عادت لأخوتها.. بقيت تحبهم!

عادت إليهم وعادوا إليها ولكن عودتهم بعد فوات الآوان.. بعد أن وقعت «حسبيَ اللهُ.. ونعمَ الوكيل» على دورِهم الصماءُ عن الحب والمشاعر.

عادت إليهم هيَ بحب لأنها لا تعرف شوارع الأحقادِ والأضغان ولأنها كانت تتذكر حقوق أبويها عليها وبرهم.

كانت تعرف بأن المال غادٍ ورائح وسَيسألها والدها في يوم الحساب عن إخوتها..«هل تركت إخوتكِ من أجل المال»

ألم يكن الله كافياً لحمايتكِ وإيوائكِ؟

أرادت أن يُسألوا هم وأن تكون هي أمام الله وثم والدها بريئة من كل شيء إلا من قلبها المؤمن وعملها الدائم.

أسأل الله في السر والعلن أن لا يُفرقني عن إخوتي فَالعائلة الأولى لكل

إنسان هيَ العائلة الأهم.. هيَ مبعث التربية وبدء حب الأخوة وتَعلم الحب! فغالباً لا يستطيع الإنسان تكوين الحُب في عائلته ما دام لم يكتسب ذاك الحب عند أبويه.

أسبوعٌ واحد وتبدأ السنة الدراسة المليئة بالأمل.. أخذتُ قمر وذهبتُ اتبضع الملابس والأحذية لمباشرة الدوام وأنا أنيقة.

صدقاً اشتريت الكثير من الأحذية لأنني أشعر بأنها تظهر أناقة المرء.

بعد أن انتهيت من التبضع وعدت إلى البيت وصلتني رسالة مفادها:

- يجب عليكِ ألا تذهبي إلى بابل.. هذا الأفضل بالنسبة لكِ كفتاة.

ادرسي في البصرة رياضيات أو اي شيء آخر ولكن لا تذهبي!

نظرت وإذا لا أعرف المرسل أو الصحفة التي أرسلت منها الرسالة!

وقفت بصمت.. ضحكتُ مُستهزئة.. أحقاً؟ هل أخاف وأفعل ما قيل أو كُتب؟

أرسلت:

- تماماً.. سأفعل ما طلب مني حرفياً. هل لك أمر آخر سَيدتي / سَيدي!!

وحضرت الحساب . حقاً لم يخطر ببالي أحد اطلاقاً وحسبتُ بأنه مقلب من إحدى صديقاتي.. فلم أُبدي اهتماماً أبداً.

صادف هذا أن الجامعة أرسلت بريداً يتضمنه:

- سيكون الدوام نصف حضورياً هذا العام، أي أنه سيكون بواقع ثلاثة أيام في الأسبوع لأقسام الطب والهندسة والعلوم ويومين لباقي الكليات، أما الأيام الإلكترونية فتكون عكس ذلك «كان ذلك لأن مرض كورونا قرع

الأبواب وأخذ معه ما أخذ من البشرية».

هل يمزحون؟ هل سأذهب لثلاثة أيام وأعود، علماً أن جدول المواد الحضورية ليس أياماً متتالية وإنما متفرقة!

حسناً، لا بس سأحاول فإن ما قدره الله هو الأفضل مهما كان بالنسبة لنا!

بدأ العام بواقع ثلاثة أيام في الأسبوع لمادة الورش الهندسية والرسم الهندسي والميكانيك الهندسي، وأما البقية فلم يكونوا إلا مواداً فرعية فاكتفينا بأخذها إلكترونياً على منصة الجامعة.

كان الأسبوع الأول ممل خالي من المحاضرات الحضورية وحتى مادة الرسم الهندسي كنا نتلقاها عبر المنصة دون أن نفهم شيئاً.. كنا كالذي دخل المدرسة في الصف الأول!

أعطانا الدكتور «محمد» واجباً لرسمة «يعتقد بأننا فهمنا، على كل حال» ! ولكنني جلست أحاول رسمها مدة الخمسة ساعات لأنني لا أعرف ما هي وظيفة مسطرة (التي سكوير، T- square) وهذه المثلثات ولماذا قال لا تستطيع أن ترسم إن لم تكن معك تلك الأدوات!

«حسناً ماهي وظيفة تلك الأدوات إذاً؟»

حسناً، لماذا اشتريت (التي سكوير).. ماذا تفعل هذه المسطرة التي تكون بشكل حرف «T»؟؟

رآني أبي محتارة فيما أفعل.. وأخبرني بأنه يجب عليَّ تثبيت (التي سكوير) على اللوح الخشبي ووضع المثلث القائم بزاوية قائمة عليه كي أرسم بدقة!

وقال لي:

- لا بأس، ستتعلمين.

لم يكن أبي مهندساً أو مُعلم رياضياتٍ بارع.. ولكنهُ كان «أبي» إنهُ الأفضل لي بكل شي، حتى أنني كنتُ أتمنى لو أنني أصبح كأبي بكل شيء.

وأخيراً انتهيت من هذه المربعات المخططة الصعبة التافهة، إلتقطت صورة

ونشرتها وكتب:

- بعد أكثر من ستة ساعات من العمل الجاد تم بعونه تعالى إكمال مشروع العمر.

رأتها صديقة طفولتي هاجر:

- هل هذه شوارع؟

- لا، بنايات، وزير الإعمار طلب مني مدن سكنية وأنا أتممتها الآن.

وهي ساخرة!

- آه حقاً..!

وضحكنا بعد يوم طويل على تفاهة الواجب وعلى الساعات التي استغرقتها وأنا أتممه!

ولكن كان ما أرعبني هو أنني بعدما أرسلت الواجب إلى الدكتور أعاد إرساله لي بعد نصف ساعة وأرسل ملاحظة مع الصورة يقول فيها:

- خطوطكِ ليست دقيقة لأنها تخترق الخطوط التي تقابلها ويجب أن تلتزم بدرجات الأقلام المذكورة، وألا يكون هناك فارق في درجات الرصاص في ورقتكِ عزيزتي!

كان سؤالي الأهم لنفسي..

كيف عرف بأن الرسمة كلها بدرجة رصاص مختلفة من مسافة لِأخرى، لماذا لا أرى أنا ذلك الاختلاف؟ وكيف رأى الخطوط المتداخلة وهي مجرد خطوط متصلة «كما رأيتها أنا»

- حسناً، شكراً لجهودك المبتذل، سأُحسِن من خطوط أقلامي.

اتصلت زوجة عمي صباح اليوم لتخبرني بأن عشاء اليوم سيكون في بيتهم.

آه يا إلهي كان اليوم ميلاد ابنة عمي ولكن لا امتلك الوقت اطلاقاً للخروج والتمتع ولكنني أخبرتها بأن واجباتي وامتحاناتي كُثر وسآتي للعشاء ومن ثم سأعود لدراستي.

الدراسة الالكترونية أجهدتني حقاً، لأن استمرار ارسال الواجبات يبدأ من السابعة صباحاً إلى الثانية عشر منتصف الليل، وأنا لم أرسل شيئاً لأنني كنت أقرأ المحاضرات والامتحانات اليومية لكل مادة

لم أكُن جاهزة للخروج اطلاقاً!

أصرت عليَّ زوجة عمي للمجيء فلم أستطع الرفض عموماً!

ذهبت إلى العشاء، ضحكت وتسليت في جموع الأهل ولكن سُرعان ما طلبت من أخي أن يعود بي إلى المنزل، فهناك واجبٌ في انتظاري وأنا أعرف بأن خلفيتي مع الرسم سيئة وسيأخذ مني ثلاثة أو أربع ساعات على الأقل.

يجبُ أن أصنع مني مهندسة ذكية.. أنا أعرف بأن النجاح لا يطرق باب النائمين!

وأنا في طريق العودة اتصلت عمتي:

- لماذا خرجتِ عزيزتي؟ لازال الوقتُ باكراً.. ماذا ستفعلين في المنزل بمفردكِ؟

- أهلاً يا عمه، أعتذر ولكن يجب أن أدرس..

- و لمَ لمْ تدرسي في سابق اليوم يا «ورد» ؟

- درست ولم أنتهي! وهَا أنا أُكمل الآن.

- هل أنت ِ متأكدة بأنكِ عائدة للدراسة فقط يا «ورد» ؟

- نعم يا عمتي، لماذا هذا السؤال؟؟

- لا اعرف، أشكُ في ذلك، على كل حال مع السلامة!

- مع السلامة...

احتضنَ الألم قلبي وصارَ التعب داخلي يرتجف، لم أنهي واجبي ونمتُ مُتأخِرة، ولم أحضر محاضراتي شعرت بأن العالم ابتلعني.

ماذا كانت تقصد؟

كانت عمتي تُحبني كثيراً، أنا أعرفُ هذا وكانت تقول لي دائماً بأني ابنتها الكبيرة وأعرفُ بأنها تخاف عليَّ ولكنني كُسِرت واستوطن الخرابُ داخلي «إنها تشكُ فيِّ حتماً».

لم أحب أن يترأس حياتي أحد أو يتحكم في طريقة عيشي، كنتُ دائماً الفتاة التي تقول لا للأشياء التي لا تُريد حدوثها أو فعلها.

أخبرتها دائماً بأنني بريئة، بأنني لا امتلك عشيقاً.. بأنني لن أفعل الأخطاء إن امتلكتُ شخصاً أحبه.

حاولتُ كثيراً إيصال هذا المفهوم ولكن أبت هيَ بدورها فهمه!

كنت أعصي كثيراً لإخبارها بأنني لا أريد هذا الفعل منها، لا أريدُ أن يُستهان بقلبي حتى عن طريق الحب.

ولكنها كانت تفهم عصياني كُرهاً وعدم استقبالي لكلماتها حقداً علمتنيهُ الحياة.. فأنا مُتعبة من مواجهتها الدائمة

ومن محاولة إثبات براءتي الدائمة وعدم تصديقها لي.

لا يجبُ على الأشخاص المواجهة بالشك، يجب أن يكون هُناك دلائل حتمية، فأنا أصبحتُ أشك في نفسي وفيما أُقدم.

«لا أُحب أن أشك في نفسي فإنّ هذا يُحدِثُ فارِقاً في قوتي و استطاعتي على الاستمرار في الثقة بنفسي».

لا أُحبُ أن اصمت دائماً في مواجهة هذا النوع من التهم الموجهة لي دائماً

كنتُ كالنار المتأججة ولكن بدون أن تحرق شيء أو يلفح لهبها شيئاً من حولي.

أحترقُ بمفردي لأنني لا أُريد موت علاقتي بها أو تضررها حتى كل شيء أستطيعُ فعله هو العصيان ثم العصيان ثم العصيان والكتابة..

كنتُ أستشيرُ الأقلامَ في مشاعري لأنها متشتتة لا تعرف في أي نقطة من جسدي تجتمع فيها، ساعةً مُتكتلة في يدي تريدُ أن تكتب، وساعةً في عقلي تُريدُ أن تموتَ إلى الأبد، وساعةً في لساني تُريدُ أن يُصرخُ بها «ولكنني أعرفُ إن صُرِخَت ستحرِقُني» !

كان الأهمُ من كل شيء ألا أحترق برمادي، ألا أتشاجر فَيؤلمُها صريخي وتؤلمني عيناها!

أخافُ أن أُؤلمُها فأنا أُحِبها رغم كل شيء!

ولأنني تعلمتُ من أبي ألا اقطعَ رَحماً وأن أحب الجميع... فقد كان أبي لا يقطع رحمه، متسامحاً لحدودٍ جميلة.

دائماً ما كانت قمر تحرضني على السكوت، تقول قمر:

- إنها تريد مصلحتكِ يا ورد، لا تريدُ بشكها هذا إيلامكِ!

أعرفُ جيداً بأن قمر مسالمة جداً.. على العكس مني!

- أتمزحينَ يا قمر، كيفَ لا تُريدُ إيلامي، فَها أنا الآن أتألم.

- أفعلي كما فعلتُ يا ورد.. هذا أفضل!

-ماذا فعلتِ يا قمر؟ ولماذا؟

قالت هذا وهي غير منتبهة وعندما سألتها ترددت بالإجابة.

- لا شيء يا ورد.. لاشيء حقاً.

- حسناً إذاً سأفتعلُ مشاكلي معها، سأصرخ وأقول لستُ مذنبة!

قلتها لافتعال مشاعرها المسالمة، لتقول لي الحقيقة كاملة.

- سأخبركِ، ولكن عديني سيبقى الصبرُ طَعاماً لكرامتكِ ياورد، لن تفتعلِ المشكلات من أجل أبي وتذكري بأنها تحبكِ يا عزيزتي ورد.

أعرفُ بأن قمر تقول لي «يا ورد» كثيراً عندما أكون غاضبة حتى تستطيع ربح هدوئي.

- سأفعل، أعدكِ بهذا.

-عندما سافرتِ بالمرة الأخيرة جاءت عمتي خصيصاً لي تريد أن تعرف إن كانت هناك علاقة تجمعكِ بأي شخص يريدُ أذيتكِ.

أخبرتها بأنكِ لا تمتلكين الوقت لهذه الأشياء تجرين وراء تحقيق الأحلام فقط، فقالت لي مُعلنةً:

- أنا أشعر بأن ورد في أزمة تراودني كوابيس منذ فترة تجاهها ولا أعرفُ لماذا ولكن كُل ما أراه بأنها تقع من الهاوية!

- هل قالت عمتي هذا؟

- نعم عزيزتي.

- ليس بي شيء ولا توجد أزمة في حياتي ولا دراستي ولا عقلي حتى، سوى الأزمة التي افتعلتها هي، أنا أكره الشك ولا أستطيع العيش به أو معه. إن كان الشك يراودها فأنا نفيتهُ لها، إذاً لماذا إلى الآن تحاول أن تثير غضبي؟

أريد أن أخرج من دوامتها فعلاً، الأفكار صارت تأكل رأسي وتضعف قوتي على البقاء متمسكة بصبري.

إن أسوأ ما يدخل قلب الإنسان ويستحل عقله هو الشك، فإن وجدَ سبيلاً للعبور من تلك الخلايا فَسلاماً على العلاقات والحبِ والأمل.

إنهُ كالكتلة المسرطنة لا يخرج من الجسد حتى تعم الفوضى به ولِمَن حوله.

يا إلهي. لا أريد أن تموت أشعاري السعيدة بحفنةٍ من الشكِ الكاذب أو تمتلئ أسطري بتساؤلاتٍ ليست لها أجوبة.

لـن أسمـح للغضـب أن يسـيطر عـليّ أبـداً وللحـب أن يفقـد طريقـهُ لقلـبي، أفضـل مـن أن أقتـل كتـبي الـتي قرأتهـا وسـطور الحـب الـتي سرقتهـا مـن تلـك الكتـب.

نـفي الغضـب داخـلي أفضـل مـن الصـراخ في وجههـا فعنـدمـا سـأَصرخ في وجههـا ينفيـني أبي وينعـدمُ حـبي بداخلهـا وأنا لا أسـتطيعُ أن أُنـفى بقلـب أبي أو أن أُعـدم بقلبهـا.

هي تحسـب بأن فعلهـا صحيحـاً لا يقبـلُ التأويـل وأنا أحسـبُ فعـلي لا يقبـلُ التأويـل «هي لأنهـا تحبـني، وأنا لأنـني لا افهـمُ حُبهـا أو أَوجُـه حبهـا هـذه» أو لأنـني لا أسـتطيع أن أُحتجـز داخـل دوامـة الشـك هـذه.

عنـدمـا أحـب أحـدهُم سـأذهب مُعلنـة لهـا ولـن أترك شـكها صحيحـاً سَـأتفوه بالحقيقـة لهـا.

لا أخـافُ الخسـارة ولا الخـوض في المعـارك، لابـد مـن أنهـا سـتقتنع يومـاً بأنـني إذا أردت شـيئاً لا يمنعـني خـوف أو عقـل، سـأفعلُ إن أردتُ الفعـل وسـأتخلى إن أردتُ التخـلي.

- أعرف بأنكِ قوية ككِتابات شاعركِ نزار قباني وعنيدةً كغزَلهِ!

اعتقدُ بأنهُ كتب هذا البيتِ لإجلكِ يا ورد.

ظَلي على أرضِ الحيادِ فإنني

سأزيدُ إصراراً على إصراري

أَيُناقِشونَ الديك في ألوانهِ

وَشقائقَ النُعمانِ في نوارِ؟

- تمزحينَ أليس كذلك!

ضحكـت قمـر مُطـولاً..(أتمـنى ألا تسـكت قمـر عـن الضحـك، عنـدمـا تضحـك تتفتـح الزهـور في قلـبي).

- لا أمـزح، أنـتِ عنيـدة جـداً ولا تُنصتـين لأحـد مـالم يعجبـكِ الإنصـات وتفعلـينَ مـا يحلـو لـكِ وتحبـينَ مـا يحلـو لـكِ لا مـا يريـدُ الجميـعُ منـكِ.
حبيبتي ورد أنتِ قويةٌ جداً..
أريـدكِ أن تعـرفي بأنـكِ قـدوتي في كل شيء لأنـكِ وبطريقـةٍ مـا تنهضـينَ مـن شـتى الحـروب بمفـردكِ لا تريـدين الاسـتناد عـلى أحـد.. لا تحبـينَ أن تتـألم مشـاعر مَـن حولـكِ.
أنتِ القوة بالنسبة لي.
- أنا قوية لأن الله معي!

٢٤/٦/٢٠٢١ م

٨:٠٠ مساءً

دخلتُ امتحاناً إلكترونياً مع عدد من الطلاب الآخرين الذين كانوا يمتلكون مثل سؤالي (كانت الأسئلة مختلفة وتوزع حسب المجموعات أو الشعب)، والعديدُ من الطلاب ارسلوا أسئلتهم في المجموعة D، وبدوري لأنني كنت أحب الرياضيات وأدرُسها كثيراً فكنت متفوقة فيه غالباً، فأخذتُ ابحث في الأسئلة التي تُشبهُ سؤالي لأُرسل الحلول لمَن بحاجة إليها.
كانَ هناكَ شخصان بحاجتها، أرسلتها للأول فَشكرَ مُساعدتي وأرسلتها للآخر، هو أيضاً بدوره الفطري شكرَ مُساعدتي، ولكن بعد خمسة دقائقَ قال لي:
- هُناك خطأ في إشارات المعادلتين الأخيرتين.
اطلعتُ عليها وإذ ما قالهُ صحيح فَأجبته:
- لن أُعدِل واجبي، أنا أخطأت وأنا مُتقبلة خطأي، شكراً لتنبيهك يمكنكَ

أن تغير الاشارات.

- ورد أنتِ مَن أرسل السؤال كاملاً والآن لا تريدين تعديل الإشارات لأنني مَن اكتشفت الخطأ؟

- نعم، هذا أفضل.

بعد أن اكتمل الإمتحان وأُغلِقت الفورما ولن تستلم أية إجابة قال «أيلول» :

- أنقذتني في اللحظةِ الأخيرةِ يا وَرد، شكراً لمجهودكِ فقد كنت خارج البيت لأمرٍ طارئ ولم أستطع اللحاق بالامتحان

ولكنني درستُ المادة وأعرفها.

- لا داعي لشكري أرجوك. لا تدري ربما أحتاجُ مُساعدةً يوماً ما فيبدو أنَّ هذا العام إلكتروني بحت للغاية مع الأسف.

- طَبعاً متى ما أردتِ المساعدة يا ورد فَسأكون.

بعد أن ذهب «أيلول» تذكرت بأنَّ هذا الاسم لا يبدو غريباً على نظري ومسامعي ولأنني بطبيعة الحال لم أعرفه ولم ألتقي به أبداً إلا في الصفوف الإلكترونية ولكنني أعرفُ شيئاً عن هذا الشاب.

فعندما كنا نجمع طلاب البصرة في مجموعات، دخل هذا الشاب إلى أحد تلك المجموعات وسأل عن طلاب مدينة ميسان وهل يمكن لهم أن ينقلوا إلى ميسان في السنوات المقبلة!

لم يلبث أحد أن يجيبه فقال للجميع: مجموعي عالٍ ٩٣٪ هل يمكنني النقل؟

(لا أعرف لِما أجابهُ الجميع)

- نعم!!!

اليوم هو موعد الامتحانُ الأول حضورياً في الجامعة ويجبُ عليَّ الذهاب إلى مدينة بابل قبل حلول الفجر لأصل في الوقت المناسب صباحاً.
سأبقى لعدة أيام هناك بمفردي مع الأسف، أو مع صديقاتي.
أستأجرنا إحدى الشقق الصغيرة التي كدنا أن نموت فيها لحجمها الصغير والتي لا يصلها ضوء الشمس حتى وكأننا معزولون عن العالم.
كان المكان سيئاً جداً مليءٌ بالصراصير و الحشرات.
أعتقدّ بأن صاحب المكان حزن علينا وجلب العديدَ من المبيدات أو أنهُ سمعَ صراخنا ونحنُ نحاول قتل الحشرات!
نفدت طاقتي اليوم.. ما بين سفر وتنظيف المنزل، وبعد ساعتين عليّ أن أخوض الامتحان
«يا إلهي»!

١١:٣٠ ظُهراً
خرجتُ لتوي من الامتحان ورأيت إحدى الصديقات خارجاً فجلستُ بقربها في المقعدِ الذي تحيطهُ الأشجار من كُل حدبٍ وصوب ..
أومأت صديقتي برأسها تريدُ مني النظر للجهة الأُخرى.. قائلةً:
- أنظري بمهل!
- وَلِمَ أنظر؟

- أتعرفين ذاك الشاب الذي يرتدي قميصاً نيلياً؟

كنتُ أعرفهُ ولكنني...!

- لا عزيزتي لا أعرفه. وَمَن يكون؟ وَلِمَ أنتِ مندهشة منه؟

- تُعجبني شخصيته جداً، إنهُ ذو ذوقٍ جميل... وأكثر ما يلفتُ انتباهي به هو أسمه، تخيلي يا ورد اسمهُ أيلول!

- أ أيلول؟؟

- نعم، صُدمتِ أليس كذلك، جميلٌ يمتلكُ اسماً جميلاً وغريباً أيضاً.

- ما شأني باسمه، ولكن اعجبني، هذا كل أمري.

قالت مُعقبة..

- تكتبين عن الحب ولا تشعرين به، وتمجدينَ المشاعر ولا تمتلكينها، أي كاتبة أنتِ؟

- لديَّ فائضٌ من الحب في قلبي للجميع ولكل شيء خلقه الله، فأكتبُ عن الحب دائماً لأُفرغ شعوراً فياضاً ينتفعُ به غيري!

فهناك كاتب يكتب ليعطي من خزائنه شيئاً لأحدٍ ما، وهناك مَن يكتب لأنهُ بحاجة الشيء الذي كتبه

- وأنتِ أيهما؟

- أكتب لأعطي، وليس لأنني بحاجة الحب، أو أي شيء آخر!

- إذاً جربتِ الحب ولهذا السبب هناك فائض فيه!

- لم أجربه..

ولكن ماذا عنكِ؟ أعتقدُ بأنكِ ارتدتِ الجامعة للبحث عن الزوج المناسب ذو الاسم الغريب!!

- سامحكِ الله يا ورد، كل مافي الأمر بأن أيلول اعجبني فقط.

حسبتكِ خضتِ من الحبِّ ما خضتِ به، لم أكن أعرفكِ جيداً، الجميع

يعتقد بأنكِ ذاتِ حظٍ عظيم وأنكِ عاشقة لرجلٍ أعظم.

- هل هذا ما توصل إليه الجميع بقراءةِ خواطِري؟؟

- نعم مع الأسف.

- بل مع الحب عزيزتي، لا يُهمني اطلاقاً كيف ينظر لي الآخرون، المهم كيف أعرف نفسي!

- اتمنى أن يعطيكِ الله رجلاً يحبكِ حقاً.

- أنا أخاف الحُب والخوض به دائماً مستيقظة من تلك الناحية ولا اسمح لأحد بالعبور لقلبي أو عقلي، لأنني كلما سمعتُ قصة حب كانت نهايتها الفراق والخوف والخسارة للطرفين إلا القليل المعدود.

أنا لا أثق بالكلمات، لا تغريني تلك الأشعار والأُغنيات.

كلما جئتُ لأغوص في الحب أتذكر قيسٌ وليلاه وما فُعِلَ بِقلبيهما!

على الرغم بأنهُ كان ابن عمها ولكن أنشدَ فيها شِعراً بين القبائل البدوية فَحُرِمت عليه ليلى إلى أن نفيت إلى خيمة رجلٌ آخر إلى الأبد.

ويُروى أنهُ فيما كان جالساً في إحدى القبائل يروي شعراً فدخل عليه زوج ليلى فقرأ له:

باللهِ عليكَ هل لمستَ وجه ليلى قُبيلَ الصُبحِ أو قَبلتَ فاها

وَهل رفَت عليك قرون ليلٰى رفيف الأقحوان على نداها.

فقال له زوج ليلى بما أنك أستحلفتني فوالله إني فعلت!

فمَسك قيس بن الملوح الجمر بيده حتى خر مغشياً عليه

ومن القصائد العديدة في حب ليلى وألمها، أو في الحب والألم:

بلِغوها إذا أتيتم حِماهَـــا إنني مُتُّ في الغرام فداهَـــــا

وأذكروها لي بكل جميـــلٍ عساها تحن عليَّ عساهَـــــا

واصحبوها لتربتي فعظامي تتمنى أن تدوسها قدماهَـــــا

إنّ روحي من الضريح تُنـ اجيها وعيني تسير إثر خطاها
لم يُشقني يوم القيامة لولا أملي أنني هُناكَ أراهَـــــــا
أخاف بأن أشبه ليلى في وجهٍ من الأوجه، لا أستطيع أن أخرج من معارك الخذلان منتصرة أبداً، لَن يستقيم داخلي ما كُسر منه (أحاول ألا أبحر في تلكَ السُفُن فَأغرق من دون أن أتنفس)
- أسَهوتِ عن قول نزار قباني أم لا تريدين ذكره؟
فاستَريحي من الكفاح قليلاً
أيُّ حُبٍ لا يعرف الإرهاقا؟؟
- قيل في القرآن عن زُليخة إمرأة العزيز «قَد شَغَفَهَا حُبًّا»
وَقيلَ في عبلة: زار الخيال خيال عَبلة في الكرى
لمتيم نشوان محلول العُـرى
وقيل في إحداهن وهي عاشقة : (يقولون إن للمشروب تأثيره ولكنني أُقسم لن ألتمس تأثيراً كَتأثير صوتها، وإذا رأيت حسنها وهي تبتسم قلت ربِّ اغفر لعيناي إن ثملت).
هل تعرفين ماذا أصاب الجميع؟
زليخة ما ظفرت بيوسف وقالت «الآن حَصحَصَ الحقُّ أنا راودتهُ عَن نَفسِهِ فاستعصم»
أما عن عبلة فَبعدَ زواجها بعنترة تَزوجَ الأخير عليها ثمان نساء.
وأما عن تكلما الأخرى فهجرَ ضحكتها بحفنةٍ حجار.
كُلُهُنَّ أُذينَ في قلوبهنَّ وبطرقٍ متعددة، ولازال هُناك الكثير وأنا لا أريد أن اكون من الكثير يكفيني أن استمع لتلك القصص المؤلمة.
- لديك فوبيا الحب يا ورد، ألم يكنُ الحب اختياراً؟ حسناً إذاً فَلمَ نخافه؟
- بلى، إنهُ اختيار لأنهُ يبدآ بالعقل حتماً ولكنهُ يعيشُ في القلب إلى الأبد،

فإن حدث ونسيَ العقل، يضلُ القلبُ في حالةِ تذكرٍ دائمة.
رُبما يذكره عطرٌ مر مرور الكرام، وكلمة واحدة تعيد صياغة تلك الذاكرة وتعود بها إلى البداية، ولكن ماذا إن لم يتذكرك قلب مَن جهدتِ بحبهِ راكضةً وعرفتِ بأن حبه لك لم يتجاوز حتى البدءِ بعقله؟
ماذا إن لم يختار أن يحبك هو وظل العقل والقلب في صراعٍ دامٍ؟
- لا اعتقد بأنكِ ستقعين في الحب يوماً ما، لا اعتقدُ بأن أحدهم سيقرِئُكِ الحبَّ أو يشعركِ بهِ حتى، فأنتُ تخيفينَ الجميع منه وكأن لكِ ثأراً معه!
صمتُ لحظة وأَجبتها:
- نعم وأنا أعتقد هذا!
ذهبت هي وظل ما قلتهُ لها ناقِصاً ولا استطيعُ قوله لأحد أبداً فَرُبما ذات يومٍ امتلكُ شجاعة قوله.

- ورد، لم أتعرف عليكِ اليوم في القاعة ولم أراكِ، هل كُنتِ هُناك؟
أرسل أيلول هذا فأجبته:
- نعم كُنت هناك، شكراً لسؤال حضرتك.. وأنا لم أعرفك أيضاً!
- حسناً ظننتُ بأنكِ تعرفينني!
- لم أعرفك..
- حسناً لا بأس فَلرُبما نلتقي غداً في إحدى نوادي الجامعة صديقتي!
- رُبما..
في الحقيقة كُنت اعرف أيلول، ولكن أكره الخوض في حديث بلا معنى مع شابٍ أُحلُ معه واجبات رياضية أو ميكانيكية لأنني اكتشفت بأنهُ

أفضل مني بِحلِها، واكادُ أجزم بأنهُ ارسل لي العديد من أسئلة الامتحانات وساعدني في دراستي شيئاً جميلا.

ولكن أخافُ التورط فأقَع وأنا لا أحبذُ الوقوع في أي شيء وأحاول الابتعاد عن الحفر الكبيرة، ولكن أيلول لا يبدو هكذا، فإنهّ بالغ في الاهتمام، أو اعتقدُ أنه بالغ!

«أخافُ اهتمامَ الغرباء»

ففي إحدى سويعات الظهر الصيفية كنتُ احتضن دفتري وأكتبُ؛ فالجو حار ولا يستطيع المرء أن يتنفس في ظلهِ حتى، فقد كانت درجة الحرارة ٥٢ درجة سيليزية.

جاءني إشعار من أيلول، لم أرغب في الرد واختلاط مشاعري فأنا في طور الكتابة، أخافُ أن أتذكر عينيه فيهزمني وصفها في دفتر أشعاري!

استمرت الإشعارات بالقدوم والطرق على هاتفي حتى تركتُ قَلَمي امتعاضاً لأنني فقدتُ تركيز الكتابة تماماً.

ما إن فتحت الهاتف وجدتُ قد كتب:

- كانت أختي قبل قليل تجلس عند رأسي وتبكي وأنا كنتُ نائماً فسمعتُ صوتها وارتعبت، حسبتُ أن مصيبة قد حلت بمنزلنا.. اقمتُ جلستي وإذ بها تمسك خصلة شعرٍ صغيرة لا يتجاوز طولها ثلاثة سنتيمترات.

سألتها لِمَ تبكين ما بكِ حبيبتي، هل حدث شيء؟

فأجابتني أنها قصت هذا الشيء الصغير من شعرِها والذي أكادُ اجزم بأنهُ غير واضح للرؤية حتى، وهي تبكي لأنها نادمة وتريد إعادته إلى رأسها!

نظرتُ إليها وضحكت كثيراً، حقاً هذا ما تبكين لأجله؟

ضحكت للحظة.. وقلتُ بدون إدراك:

- أتمزح!

- كانت تلك ردة فعلي عندما رأيتها أيضاً..

- حسناً كَم تبلغ من العمر أختك؟

- ٢٥ عاماً

- تمزح...!

وعدتُ لأضحكَ بعدم إدراك.

فقال أيلول:

- اعتقدُ بأنكم الفتيات تحبون تضخيم الأمور في حُب الأشياء.

- ماذا تقصدُ بتضخيم الأمور، أنحنُ كاذبات؟

- لا، لستنَّ كاذبات ولكن ترون من المنظور الصغير فحسب، فهذا الشعر من المُمكن أن يأتي مثله أضعافاً إن تركته ثلاثة أشهر فقط!

وأنَّ جميعَ الأشياء التي تذهب ستأتي إما محملةً بأشياء أجمل أو أفضل منها اطلاقاً، فَلِمَ أبكي عليها واستنزفُ طاقة جسدي؟

تلك الأشياء التي تبكينا حتماً ستكون يوماً ما ذكرى تافهة.

قلت ناكرةً ما قاله أيلول بامتعاض غير مرئي:

- يبدو عليك خضت أشياء تافهة كما زعمت!

- يبدو عليك غير مصدقة، حسناً سأحكي لكِ قصة قصيرة!

ذهبت مع أبي في إحدى الأيام إلى المختبر الطبي لإجراء بعض فحوصات الدم لأن هناك سيلان بسيط في دمي مُنذُ القِدَم، وكان هذا إجراء روتيني افعلهُ بينَ الحينِ والآخر..

خرجت فحوصاتي مُعلنةً الحرب على جسدي.

قال الدكتور:

- مع الأسف ويزعجني إخبارِكُم بهذا ولكن ما يبدو لي في هذه الأوراق بأن سرطان الدم قد بدأ يتشكل في دمك ويجب علينا بدأ العلاج في اسرع وقت

لمنع انتشاره في جسدك، و لأن سرعة انتشار سرطان الدم خطيرة أودُّ بالبدءِ فوراً وتقديم جلسات العلاج المُمكِنة والدعم اللازم، اكرر اعتذاري، مع السلام.

وقفت وأبي مستهزئينِ ما سمعنا وطلبنا منه إعادة الفحوصات جميعها ولكنه قال لنا بأن الفحوصات قد تمت أكثر من مرة على عينة الدم خاصتي.

صدمتُ حينها لأنني لم تظهر عليَّ أعراض مرض حتى ولم أشعر بأي تعب أو إرهاق.

لم يكن من السهل على عائلتي التقبل أو التفكير بمرضي حتى أو عدم شفائي.

فَأختي سارة طبيبة ولم تقف في مكانها، ضلت تتصل بكل طبيبٍ تعرفه ولا تعرفه من أجل سفري أو علاجي.

قال لها أحد الأطباء الذين أخذوا نصيبهم من زيارة بلدان العالم بأن هُناك إبر قوية قد تنهي معاناتي مع تقدم المرض أو تزيدها لأن موادها الكيماوية قوية جداً إلى حدٍ يجعلني اتقيء ألمي!

لا اعرفُ ماذا أقول له، أهو مريض؟ صمتُ للحظات قليلة وقلت:

- يا إلهي وكيف حالك، أأنتَ بخير، كيف تشعر؟

- أرجوكِ لا تقلقي يا ورد ِنيسان، فأنا بخير

- أوردَ نيسان!؟

- ألم يعجبكِ؟

- بلى، ولك..

- أنتَ جميلة كورودِ نيسان!

لم أكُن إلا حزينة على ما قاله، حقاً حزينة ولا أجرؤ في طرح أي سؤال يخص مرضه خشيةً من أن يقول لي سأموت قريباً.

لا أعرفُ لِمَ أشعر بهذا السوء!

ولكنـهُ كان يعـرف كيـف يبـدل الموضـوع ويحـل بـه شيء مـن الرقـة، كيـف خطـر عـلى باله بأن يقـول لي «وردَ نيسـان»!

قاطع أيلول صمتي وقال:

- أنا بخير صدقيني.

احـضرت لي سـارة تلـك الابر مـن الخـارج وأنا لا أبالـغ إن قلـت بأن الابرة الواحـدة اظـل أتألم منهـا شهـر كامـل إلى أن يأتي موعـد الأخـرى فـأتألم مجـدداً، أشـعر بأن المـواد الموضوعـة تأكل جسـدي قطعـةً قطعـة بـدون رحمـة أو توقـف، فأغيـب عـن وعـيي ليـوم كامـل مـن بـؤسِ انتشـار الـدواء فيِّ.

صارت حالة أبي مزرية، إنهُ لا يتحمل رؤيتي هكذا.

- يا لِجرحه العميق، إنه أب!

أما زلت تأخذ من تلك الجرعات!؟

- انتهت الجرعة الأخيرة قبل سنتين!

بعـد أن أخذتهـا سـاءت حالتي كثيراً واضطـرِرتُ لأخـذ عـدد مـن الفحوصـات مجـدداً والمكـوث في المستشـفى لمـدة يـوم كامـل مـن أخـذ الجرعـة.

كنـت أرى دمـوع أبي تتـأرجحُ مـن مقلتيـهِ وتسـقط إلى الفنـاء، ابتسمُ رغمـاً عـني أريـدهُ قـوياً، فـإن سـقط أبي اسـقط أنا!

كُنـت خائفـة.. أنا حقـاً متوترة ولا اعـرف مـاذا سـيضع في الجملـة التي بعدهـا، كُنـت صامتـة ولم اتفـوه بحـرفٍ طليـق!

استشعر أيلول صمتي والخوف في قلبي وأردف يقول:

- لِمَ أنتِ خائفة؟ سأكمل يا وردَ نيسان لا تقلقي..

- حسـناً، أنا انصـتُ إليـك، ولكنـني فقـط أفكـر بـك وكيـف واجهـت هـذا المـرض لأنـهُ كالعشـق لا يخـرج منـك إلا أذا أخـذ منـك شـيئاً تسـتحيل عودتـه.

- ألم أقل بأن الفتيات يضخمنَّ الأمور؟

- هل موتك تضخيمٌ للأمور يا أيلول؟

- لكل شيء هناك حل حتمي وإن لم يكن حتمي فآني، وكِلاهُما حلاً!

وأنَّ لِكل داءٍ دواءٍ مَهما عظمَ البلاء، وما يجعلُ الإنسانُ إنساناً هو الألم.

- أتقصدُ بأنَّ هناكَ دائماً زاوية وردية تطرق بابك في استمرارٍ جميل؟

ضحك أيلول اللئيم وقال:

- اعتقدُ هذا، دائماً ما تترجمين الأمل على أنهُ ورديٌّ وحتى إذا تخالط بالألم صارَ زاويةً.

لا شك في وجود الأمل في كل شيء، إنهُ العامل الأكبر للنفسية البشرية، فَعندما كان الجميعُ ينتظرُ موتي بألمٍ صامت، كنتُ مُتأملاً للشفاء، كان هناك شيء داخلي يوحي بأنها ليست النهاية على الإطلاق.

فبعدَ أن ساءت حالتي وذهبت إلى المستشفى اضطُررتُ لعمل الفحوصات كلها من جديد، كنت متعب إلى حدٍ مُفرط وأنتظرُ قُدومَ الطبيب إليَّ.

- السلامُ عليكم

كيف حالك يا أيلول، وكيف تشعر؟

قالها بابتسامةٍ عريضة..

- وعليك السلام، لا أشعر أني بخير.

ضحك الطبيب وقال:

- أنا أعرف بأنك تتألم يا أيلول، ولكن نشكر الله على كل شيء فإن هذا الألم لم يذهب سُدىً وأعانك اللهُ بالشفاء العاجل يا سيدي.

أستطيعُ أن أقول لك الآن حَمداً للهِ على سلامتك، ولكن ستتألم بأعراض الجرعة الأخيرة إلى وقت زوالها.. مع السلامة.

سمعتُ هذا من أيلول وأشعرُ بأنني أطير من الفرح...

- أيلول، هل حقاً أنتَ بخير، هل شفيت تماماً من ذلك المرض الخبيث، يا إلهي حَمداً كثيراً.

- شفيت يا ورد نيسان.

- لا بُد من أن والداك دعا لك كثيراً وألحوا على الله، فأنا أثق بقوة الدعاء وكيف لها أن تغير مسار حياة بكاملها، إنه أعظم وسيلة قد وهِبت للبشرية من قبل الله.

لا يأس مع الله ولا هم والله يُدعى.

- أأنتِ سعيدة يا ورد؟

- وكيف لاحظت ذلك؟

- كُلما تجيئين الحديث عن الله يتفتح قلبكِ كالورود حتى يشعر الشخص المقابل بأن سعادتكِ مُفرطة، أحب وجودَ الله في قلبكِ بهذه الطريقة القوية، لا يُمكن أن يُهزمَ قَلبٌ مليءٌ بالله.

- إن الله أحبني فَملئ قلبي به، وإن الله أحبك فَاستجابَ لك!

- هذا صحيح.

- أن لكل بلاء درس يا أيلول، فما الذي تعلمتهُ أنتَ من بلاءكَ المؤلم هذا؟

- نعم، تعلمتُ أن لا أُضخِمَ الأمور وأن استقبلها باستحسانٍ تام لأنها من الله.

وأن الأشياء تأتي بسرعة دون توقع إن كانت جيدة أو سيئة ومهما كانت سيئة يجب أن أتعايش معها لأنها أصبحت جُزءً مني.

قرأتُ هذهِ العبارة التي قالها عدة مرات وكررت!

يجب أن أتعايش معها لأنها صارت جُزءاً مني، ومن ثم وضعتها موضع التثبيت أمامي لأقرأها دائماً كي لا أُصدم من أي شيء وأن اكون متوقعة كل شيء، ولا أخاف... ولا أخاف!

- لماذا عم الصمت على شفتيك ووضعت تلك الجملة في التثبيت؟ أترى داخلك صامت مثل شفتيك؟

- لا شيء، لأقرأها فقط!

- تقرأيها فقط!

- لأتعلمها.. فلستُ إلا فتاة تخاف تغير الأشياء..

وضعتها أمامي كي لا يرعبني تغير الأشياء ويزحزح رتابتي انقلاب القدر، فأنا أعرف جيداً أن كما للإنسان عمر نهايتهُ الموت فإن للأشياء والأحداث أعمارٌ نهايتهُا الموت أيضاً مَهما كانت جيدة أو سيئة.

- اتمنى أن لا يبعثر القدر أشياءكِ الجميلة..

صمتُ لفترة صغيرة.. صمتُ هذهِ المرة بشرودٍ ومن غيرِ شرود، أعجباً أقولُ لهُ:

(أنا أيضاً اتمنى يا أيلول.. أتمنى أن لا يزحزكَ القدر عن طريقي)

آه لا يا إلهي سأبدو غبية.. أو سأبدو بأنني أحبه وأنا لا أحبه!

فأجبته:

- اتمنى أن لا يُبعثرني القدر، وأما الأشياء فإنها مؤقتة وأما قلبي فإنهُ دائم!

- عزيزتي ورد نيسان..

التغير ليس شيئاً سيئاً هي الحياة هكذا وذا طبعها لن يبقى شيء كحاله الأصلي عند البدء.. فها أنا بدأت بكِ ولم تكوني لي شيئاً والآن أصبحتِ عظيمَ سيري في الحياة!

- سأعود للقراءة الآن، أراك في المحاضرة لاحقاً!

قلتُ هذا بدون أن أعقب على قولهِ (عظيم سيري في الحياة) عجباً ماذا كان يقصد.. إلى ماذا نوه أيلول الآن ؟

بقيت أتساءل عدة لحظات قليلة ثم قاطع أيلول انشغال عقلي قائلاً:

- ماذا تقرأين؟

- الآن بيدي كتاب «قوة العقل الباطن «.. إنهُ بالضبط كاسمه!

- يُقال بأنهُ كتابٌ مفيد .. أحقاً؟

- جيد جداً انصحك بقراءته.

- وهل حقاً العقل الباطن قوي يا ورد نيسان؟

- ازدواج شخصية المرء يكمن في العقل الباطن، إنه المتحكم الأساسي بمعظم الأشياء في حياتك دون أن تشعر حتى بأنهُ السبب في فكرة فاشلة أو أخرى قد تكون ناجحة!

وأحياناً أخرى يتعزى سبب ازدواج فكرة إليه بدون شعورك أيضاً لأنه لا يعرف الفرق بين الخيال والحقيقة.

كل شيء يطرحه عقلك الواعي هو حقيقة بالنسبة للعقل اللاواعي فيعمل على إتقانها في الحياة الاعتيادية لأنه لا يعرف الكلل أو الملل أو حتى النوم.. يعمل باستمرار.

فإن أردت إطعامه وتغذيته أفكاراً إيجابية كان لك فيها وحَفزك حتى لو كان خيالاً يصعب الوصول إليه وبالنتيجة ستصل دون أن تعرف كيف تشجعت ومن كان سبب حماسك للوصول.

وإن ملأته بالسوء الفكري صار لك عدواً وملئ حياتك بالتعاسة..

فكثرة السلبية وملئها حياتك ستجعل عقلك الباطني يفرز هرمونات سامة تضر الجسد.. فصرت كثير الشكوى والألم بدون سببٍ مُقنع لتألمك حتى!

- تقصدين بأن حياتنا هي ما يعتمد عليه اطعامنا عقولنا اللاواعية لأنها سبب رئيسي فيما نملك!

- بالضبط، فالعقل الواعي يعرف جيداً الحقيقة والخيال ويأتيك بالحقيقة فقط متى ما سألته.

- هل اطعمتِ عقلكِ اللاواعي الزاوية الوردية يا ورد نيسان؟

- منذ ثلاث سنوات أطعمهُ تلك الزاوية. وداعاً.. أراك لاحقاً.

- انتظري..

لماذا اسمكِ ورد؟

- لأنني ولدتُ في شهر نيسان، وداعاً.

- وداعاً يا ورد نيسان..

كنت كلما أريد الذهاب أراه قال شيئاً آخر وجعلني أتكلم أكثر، أعرف جيداً بأنهُ يستطيع إدخالي في متاهاتِ كلمات كي لا اسكت.. واعتقد بأنه ينجح في هذا نجاحاً جيداً.

وأنا في طريقي للذهاب إلى كتبي خطر في ذهني سؤال ولم استطع كبته في مخيلتي طويلاً..

- لماذا أسمك أيلول؟

- لأنني ولدت في شهر أيلول.

- ولكن هذا غش!

- إنها الحقيقة..

٩:٠٠ مساءً

٤/٧/٢٠٢١ م

الجو شديد الحرارة على الرغم من حلول المساء وانكسار الشمس إلى بلد آخر.

كنت جالسة بالقرب من شجرة السدر الكبيرة ابحث عن نفحات هواءٍ تجلبهُ أوراقها الكثيرة وكيف أن حركة هواء صغيرة بإمكانها هز جميع أوراقها

على الرغم من ثباتها وحجمها الكبير!

دائماً عند النظر إليها وهي ترتعش عند قدوم نسمات هواء عليلة أن الإنسان يشبه الشجرة مهما بدا ضخماً من الخارج وتزيَف بألوان الحياة اللانهائية ومهما بدت عليه القوة والشموخ فإن مجرد كلمات عابرة قد تسبب رعشة في جسده من الداخل وكلما كانت الكلمات أكثر تأثيراً كلما ظهر ارتعاشه على بدنهِ الخارجي.

هذا ليس عيباً.. بل هذا ما يجعلنا بشر، نحن فُطرنا على الخوف من الخسارة.. الخسارة في أي شيء مهما بدا عادياً وسخيفاً وغير ذي معنىً أو قيمة، والارتعاشات النفسية الصغيرة تلك هي ما تصنعُ الإنسان فكلما زادت حدتها أو قسوتها بَدا الإنسان أكثر صموداً وتأقلماً!

قيل لي ذات مرة بأنني لا امتلكُ قلباً وكانَ موقفاً ناتجاً عن شيء جبلتُ فيه عنوةً على الصمود بدون أن ترتعش يداي أو أن أبدي هشاشتي.

لا يبدو الإنسان بدون قلب عندما يصمتُ في حب أو حزن وكِلاهما وجهان متشابهان لعملة واحدة (طالما هناك حب فمن المؤكد أن هناك حزن والعكس في غاية الصحة!) من غير المفترض أن ننال بالمشاعر الظاهرة الأحاسيس الصادقة، فجميعنا يعرف كيف تصطنع المشاعر وكيف لها أن تأثر بالمقابل وتجعله يصدق مدى طيبتك وحبك أو تأثرك.

من غير المفترض أن نصدق الوجوه دائماً فنرمي صدق قلوبٍ أو زيغها إلى مكب النفايات ولا نشعر بالحاجة إليها!

نعم نحن لا نستطيع لمس تلك القلوب أو وضع حساسات استشعارية داخلها ولكن يكفي بأن لا نرمي الكلمات عبثاً بدون أن نعرف تأثيرها على الفرد.

فأنا لن أنسى مَن اتهمني بموت قلبي وكنت حينها أشعر بأن جبالاً داخلي تبدأ انهيارها، ولن أنسى أيضاً مَن امسك بيدي وقال لا ضير تبدين قوية

ولكنني أعرف بِم تشعرين!
هُناك دائماً حاجز صغير بين أن تكون قوياً و بين أن تظهر بصفة القوة ولكنك متهشم كلياً..
وأنا في تلك اللحظات كنت أشعر بأنني متهشمة كلياً واصطناع القوة كان أعظم وسائل دفاعي..
في اللحظة التي جاءت عمتي تطرق أبواب الشك داخلي..
قالت:
- ماذا تخبئين عني يا ورد؟
- ماذا سأُخبئ عنكِ يا عمة.. ولأي شيء سأُخبه؟
-أ متأكدة من ذلك؟
قلت بحزم شديد..
- نعم مُتأكدة!
- ماذا يعني لكِ أيلول؟
تَجمدتُ في أُفقي ولم اتفوه بكلمة واحدة.. تداعت قوتي إلى الجحيم وبدا الضعف على شفتي، ولم أعرف هل أسألها كيف عرفتي أم أجيبها على سؤالها (ماذا يعني لكِ أيلول)، أو لا اعرف ماذا يعني لي أيلول فكيف أجيبها.
كان السكوت أفضل شيء خطر في مخيلتي الحمقاء في تلك اللحظة ولا أعرف لمَ خذلتني الكلمات وهربت مهرولة إلى العدم الذي لا اعرف كيف سأصل إليه وابحث به عنها!
قاطعت غوصي في أفقي من جديد و أعادتني إلى وعيي ..
- ماذا يعني لكِ أيلول.. لمَ أنتِ في صمتٍ كهذا.. أتحاولينَ الكذب؟
عدتُ إلى نقطة البداية من جديد.. لا أعرف ماذا سأقول، وأنا لا أجيد

الكـذب حـتى.

جميـع الكلمـات هربـت بعيـداً كأن لسـاني أصابتـهُ لعنـة الخمـول فهـو لا يجـد شـيئاً حـتى بالكـذب.. لم يعـرف بمـاذا يكـذب وهـذا نتاجـه بأن عقـلي لم يسـتوعب سـؤالها فكيـف بـهِ الإجابـة عنـه!

عادت عمتي وهزت يدي..

- ورد، أنا أتـكلمُ بجدية كاملة وأرجـو منـكِ التحـاور معي وليس السكوت فـأنا أودُ سماعـكِ وأودُ فهـم دفاعاتـكِ.

كيف سأخبرهَا بمن يكون أيلول..

هذا جُل ما أصاب دماغي فأنا لا اعرف مَن يكون!

أشـعر الآن بأن نطـقي اسـتعاد حداثتـه وبأن الحـروف المقطعـة بـدأت تصبـح كلمـات في مخيلـتي شـيئاً فشـيئاً..

- كيف عرفتِ أيلول؟

- هل تجيبين على السؤال بسؤال.. أنا مَن اطرح الأسئلة عزيزتي ورد!

في ثباتٍ قلت:

- سأعرف كيف عرفت أيلول أولاً وبعدها سأجيبكِ!

- سَتجيبين..

تسـاءلت مَـن عـرض خرائـط قلـبي للعلـن، مـن يعبـث بمشـاعري إلى هـذا الحـد القريب.

أخـاف أن أفكـر فتعـرف بمَ فكـرت أو أن أنظـر في عينيهـا فتعـرف أيلـول الـذي لا أعرفـه!

- إنهُ ليس سوى زميل لي في الجامعة!

- أمتأكدة؟

- نعم فأنا لا أعرفه..

- ولكنني أعرفه يا ورد.. أو فلنقل عرفته.

- كيف عرفته يا عمة؟

- سمعتكِ بالأمس تحدثين قمر عن أيلول الذي يمتلك وجهاً جميلاً... سمعتكِ تتحدثين بحب له يا ورد، ولكن هل تساءلتِ كيف يبدو قلبه.. هل يشبه وجههُ على قليلٍ من العموم؟

- ولمَ قلبه.. لا يبدو لي هذا منطقياً أبداً.

- بل يبدو وكثيراً يا ورد..

ابتعدي عنه أو ابعديهِ عنكِ... أنا اشك في الاختيارات السريعة والمتَهورة.

ستحزنين يا ورد..!

لم أقل شيئاً...

قالت من جديد...:

- أرى في هذا بأنكِ لن تتقبلي شيئاً قلته!

صمت وابتلعتُ ما بقي داخلي..

بقيتُ آكل شفتاي من الداخل واضغط على أسناني بقوة كما لو أنني أريد دهس الحجر الذي جثم فوق لساني لأطلق العنان لكلماتي.

آخذُ ملابسي بقبضة يدي (احتضن ملابسي) .. أُهدأ جسدي المرتعش.

تلتفت عيناي يمنةً ويسرة وإلى الأرض وفي عينيها حيناً من الحينِ.

أعرفُ بأنها تنظر إلى شفتاي وفكي... أعرف بأنها تعرف صِراعاتي الداخلية وبأنني خائفة من كل شيء حتى منها!

ولكنني لن أبدي هذا في كلماتي.. وسَأبدو أكثر شموخاً.

- أنا لستُ مُخطئة.. أثقُ باختياراتي لأَصدقائي ولِمَن حولي ممن أحب.. أنا لستُ مفرطة في الغباء.. فأنا ورد.

قلت هذا ولكنني غير مرتاحة.. «أنا خائفة» !

- حسناً.. ولكن ستحزنين يا ورد لطالما لن تتقبلي نصيحتي يوماً، لكن ستحزنين في النهاية.

- لن أحزن..

كان أكثر ما يخيفني في هذا العالم أن أبقى وحيدة.. لم تكن وحدتي تعني بأن الناس لا يجتمعون حولي بل على العكس تماماً فقد كنتُ فتاة اجتماعية ولدي الكثير من الأصدقاء حولي.. الكثير الذي لا أعرف كم عددهم حتى، ولكن كنتُ أخاف وحدة القلب وفراغه.. أن أكون وحيدة في وسط زحامٍ من الناس وأن لا أعرف ما هو الطريق رغم وجود الخارطة..

وأن أتعثر بالأحجار الصغيرة ولا أجد من يربت على كتفي بحب.

كان ذلك عندما أشك في أحدهم وعندما أظن بقلبه سوءاً و لتجنب الخوف كنت اتجنب الشك.

أشعر بأن الخوف لا يعيش بنفس الزاوية هو والأمل.. أنهما نقيضان كبيران بالنسبة لفتاة اصطنعت لنفسها زاوية وردية تأوي إليها دائماً..

إنني أجنب زاويتي ذاك الخوف لتعيش بسلام بدون فراغ أو وحدة!

الشك أداة قاهرة لهدم العلاقات وإنهاؤها.. حتى أكبرها و أجملها وأكثرها حباً ستموت بسبب الشك.. وعلاقتي بكِ أُحيلت إلى الإعدام يا عمتي.

فأنا الآن سأكبر بدون الحب الذي ظننتني لن أعيش إلا به.

مشكلتكِ تريدين حمايتي من كل شيء وبصورة مزعجة..

مشكلتي أريد الانجراف في الحياة وتجربة كل ما هو ممكن، فأنا لا أخاف الخوض في المعارك!

مشكلتكِ لا تريدين لقلبي أن يكسر..

ومشكلتي لا أريد شكاً يحميني من السقوط.

لا تَضعيني في زجاجة رغماً عني فيكسرها ضجيجي رغماً عنكِ..

ورد تفتعل المشاكل إن احست بعدم الأمان تعرفين هذا جيداً!

٢:٤٥ ظهراً

في يومٍ من الأيام../٢٠٢٠ م

أنا الآن أقف أمام بوابة جامعة أختي غادة أنتظرها لتنتهي من إلقاء محاضراتها ولكن الجو حار جدا ويبدو أن تكييف سيارتي أعلن استقالته عن العمل!

٢:٥٠...

ها هي أختي خرجت للتو من بوابة الجامعة ولكنها تتمشى تحت لهيب الشمس هذا، وكأنها تمشي تحت دفيف المطر!

٢:٥٣...

«صورة»

دخلت أختي لتوها السيارة فأردت أن ألتقط صورة لنا وإرسالها لكِ.. هل جميلة؟

عندما ألقيت النظر إلى هاتفي كانت هناك ثلاثة رسائل واردة من أيلول.. قرأتها فجئت أبتسم (إنه مجنون غالباً)، ولكن صورتهما في هذا الحر الشديد تبدو جميلة ولا بأس بها.. فأردفتُ:

- نعم، الصورة جميلة إلى حد ما.. لا أستطيع المجاملة فالجو حار يا أيلول

وربما كانت غادة تنتعل كعباً فلا تستطيع الركض إليك في طبيعة الحال، أليس كذلك يا صديقي؟

- أليس مؤسفاً لي أن اجلس في كومة حديد والشمس تأكل في رأسي وأنتم تخافون أن تصاب أحذيتكم باعوجاجٍ في كعوبها!

يا لكنَّ من ماكرات حقاً!

- آه يا إلهي سأبكي عليك..

- كم أنتِ تافهة لتبكين عليَّ.. وهو يضحك تارة ويغضب أخرى.

- ستبدأ الامتحانات الحضورية بعد يومين.. اراك لاحقاً.

قال وهو يريد الإطالة والمزاح..

- لن أستطيع مساعدتكِ هناك ولن أخبركِ ما هو الخطأ.. سترسبين يا ورد نيسان..!

- وهل ظننت بأن نجاحي متوقف على مساعدتك أيها الأحمق؟

سأنجح لأنني درست وليس لأنك ساعدتني يا أيلول.

- حسناً.. حسناً.

اعترف بأنكِ ستنجحين كما فعلتِ سابقاً وبدوني أيتها الحمقاء.

- لا مُحال.

- هل اكتشفتِ يوماً شوارع بابل أم اقتصرتِ على الجامعة فقط؟

- الجامعة فقط؟

ضحكت بقوة..

أقسم بأنني لم أخرج عن شارع كليتنا، ولا أعرف شوارع الجامعة حتى وليس شوارع بابل.

لكنني دوماً ما تمنيتُ أن أذهب لآثار بابل والجنائن المعلقة وقصور الرئاسة القديمة.

- لماذا لم تذهبي إلى الآن؟

- سؤلاً سخيف يا أيلول.. فأجابتهُ واضحة كعين الشمس.

كما تعرف أنا وحيدة هنا من الأهل والأقارب، لا يوجد أبي ولا أخي ولا عمي، وإن عرضت على صديقاتي فلا يرغبن بالذهاب فلا تجذبهُن هذه الأشياء.

ولا أستطيع أن أركب سيارة بمفردي وأذهب فأنا لا أعرف كيف أتعامل مع

سيارات الأجرة فلم يحوجنا أبي ارتيادها يوماً.

ولهذا السبب لا أعرف أي شارع في هذه المدينة سوى كليتي.

- أنتِ لستِ وحيدة.. اعرفي هذا دائماً.

سأصطحبك إلى حيثُ تشائين مع مَن تشائين يا ورد.

وأنا افتعل المزاح معه...

- ولكن احذر.. ليس بحوزتي أية نقود أعطيك إياها.

- سآخذ كل ما لديكِ من نقود يا ورد.. ستعودين بلا ماءٍ حتى، وإن رأيتكِ تموتين من العطش فلن أشفق عليكِ وأعطيكِ ربع دينار لتَشتري زجاجة ماء يرتوي به ظمأكِ.

- آه حقاً..

لقد أخفتني، سأموت إن لم تعطيني..

عمَّ الصمتُ بيننا لدقائق قليلة..

- تعرفين بأنني سأعطيكِ كل ما تريدين.. أخاف أن أرفض شيء بسيط لهذه الدرجة فأندم لاحقاً!

استشعرتُ بنبرات أيلول شيئاً من الحزن..

- ما بك.. هل هناك شيء.. لماذا اختفى مزاح صوتك؟

- ليس بي شيء..

على أي حالٍ يا ورد نيسان.

- ماذا تقصد على أي حال؟

- ألم تتساءلي لم أنا في الحداد منذ أشهر؟

- بلى ولكن لا أحب أن أُوقظ جرحاً نائماً.. فلَم أسأَل!

انتظرتك تخبرني بدون أن اكون ألماً!

- لن تكوني ألماً ولكن لا أريدكِ أن تحزني فأشعر بأن قلبي قد زاد رهقاً أكثر

مـن ذي قبـل.

- إن كنت تخاف احزاني.. فلك هذا..

لمَ يحتاج المرء إلى الأصدقاء إن شعر بالحزن؟

- ليكونوا بالقرب منه إن أراد كَتفاً!

- لماذا اتخذتني صديقة إذاً؟

- لتكوني بالقرب مني كتفاً.

- حسـناً إذاً.. ولكـن إن كنـت تخـاف أن يفتـح في قلبـك جرحـاً كان مكـوياً فعندهـا لا تتـكلم يا أيلـول، فـأنا لا أشجـع الألم عـلى النهـوض واسـعى لإخمـاده في قلـوب جميـع مـن أعرفهـم.

- ما نام أبداً لتنهضيه أنتِ الآن..

إنهُ دائم الأبَدِ يضربني بسوط الندم!

- ومـا الـذي سـيقدمه النـدم أو يؤخـره، إنـه ليـس سـوى وسـيلة مـن وسـائل الشـيطان لِتعـذب نفسـك بنفسـك وتسـتنزف طاقتـك كلهـا عـلى «نـدم» لـن يقـدم شـيئاً وينفعـه!

النـدم ليـس سـوى مـرضٌ نفسـي تجـبُ معالجتـه بالقبـول والتأقلـم مـع الحـدث وأن هـذا أمـرُ الله فـلا سخـط أو اعـتراض.

- ولكـن منـذ أشهـر تـوفي صديـقي بسـببي، لم أسـتطع فعـل شيء، كيـف لي أن أتأقـلم مـع تلـك الفكـرة؟

- وكيف توفي بسببك.. ؟

- اتصـل بي ذات ليـلة وكان جالسـاً عـلى النهـر، أرادني أن آتي إليـهِ لأنـه بحـالة نفسـية غـير مسـتقرة.

بـدوري أخبرتـه بأن لـدي امتحـان الآن وسـأنهِيه وآتي إليـه عـلى الفـور، وأغلقت الهاتف.

وبعد عدة ساعات وصلني خبر موته!

- يا إلهي، أنا اسفة حقاً.

-لا عليكِ يا ورد.

- كيف حدث موته؟

- عندما نهض من على حافة النهر تزحلقت قدمه و وقع ثم ضرب رأسهُ بالحافة التي كان يجلس عليها وخر مغشياً عليه..

ولكنهُ مات غرقاً يا ورد وليس من أثر الاصطدام بالأرض..

مات لأنني ما كنت بجانبه.. تركته يموت!

كنت سأخرجهُ.. كنت سأنقذهُ.

- لا تُلقي اللوم على نفسك أرجوك.. إن هذا قدرٌ قَد قُدِر له.

- عندما ذهبت إلى مكان الحادث، رأيت والدته تجلس بالقرب من جثته الهامدة..

تجلس بالقرب من طفلها الصغير وتبكي..

رمقتني من بعيد ونادت بي... أيلول أنظر لصديقك.. أنظر لطفلي إنه لا يتحرك.

كانت الدموع تغطي وجهها حتى من سماكتها لا تعرف لها ملامح وصوتها الذي يأتي ببطء شديد يكاد يكون مظلم ومتعثر.. إنهُ غائم لكثر ما ابتلعت من الدموع المخثرة.

كانت يديها ترتجف وهي تمررها على رأس طفلها.. تنادي (اجلبوا لي غطاءً فَجبين طفلي كالثلج).

المكان شبه مظلم ولكن سيارات الإسعاف أنارت الأرجاء..

ولكن أرجاء قلبي ضلت معتمة..

قدماي ما عادت تحملانني، وقعتُ على الأرض وبكيتُ بكاءَ أم قادر.

بكيت بكائي وبكاؤها، لم أتحمل رؤية صديقي وهو ملقىً على الأرض كالجثث.. لم اصدق عيناي شعرت وكأنني في حلم مؤلم.

كلما حاولت أن استيقظ صفعتُ بكفوف الحقيقة، كلما حاولت أن أنهض سقطت ساقاي للأسفل وكأن صديقي يسحبني لا يريد مني النهوض، وكأنهُ يعاتبني لماذا لم آتي إليه وفضلت امتحاني!

امسكت يده..

كانت متجمدة..ربما لأننا في شهر كانون الثاني، أو، لأن روحه الدافئة قد رحلت إلى الأبد وضل جسده البارد؟

- أنا لا أستطيع تخيل شعورك حتى، فهذا الشيء كثيرٌ على القلب والعقل معاً، أنا افهمك ولكنني لا أشعر بك أعرف هذا جيداً.

أتعرف شيئاً؟

كنت كلما ساورني حزن أو تعب أو ندم اجعل عقلي الباطني يأخذ دورهُ في تدليك عقلي الواعي فأشعر بعدها بتحسنٍ رهيب.

- ماذا تقصدين بتدليك العقل الواعي؟

- أي جعله يتقبل الحقيقة ويترك ما هو غيرها من وهن وحَزن، ك تدليك القدمين بعد الألم، لابد أن تشعر بتحسن، فالعقل دواءه التدليك أيضاً.

- كيف لكِ هذا؟

- هل تريد أن آخذك إليه الآن؟

- إلى أين..!؟

- إلى قادر...

- تمزحين غالباً يا ورد نيسان!

- اقسم بأنني لا أمزح، هل تريد الذهاب؟

- ولكن كيف؟

- لا عليك فقط أخبرني..

- بالتأكيد أرغب في ذلك!

- حسناً إذاً كُن معي..

اغمض عينيك وتتبع الصوت الذي تسمعهُ أياً كان.. هل اتفقنا؟

- حسناً، اتفقنا!

- تجلس الآن على رمال البحر الناعمة... تلفح وجنتيك رياحاً شمالية متجانسة مع رائحة البحر..

الغيوم متفرقة كأنها قطع ثلج في السماء.. والشمس تتأهب للانسحاب وفسح الطريق أمام القمر.

أمواج البحر ترتطم برجليك ويتصاعدُ رذاذها على وجهك فَينتعش وتشعر بأن الحياة تكافئك على محبتك لها.

أتسمع؟؟

أنصت....

انظر إلى السماء هناك فوق البحر على بعد عشرة أمتار منك، أترى النوارس؟

إنها تتقاتل ولكن ليس هناك شيء تتقاتل لأجله أظن بأنها تلعب فقط.. إنها تحب الماء كثيراً واعتقد بأنها سعيدة بك لزيارتك إياها فهي تضل طول العام وحيدة لا ترى سوى الماء والقليل من فُتات الخبز.

نعم هي تقترب منك الآن.. هل رأت في جيبك بسكويتاً؟

هل تخبئ للنوارس بسكويتا يا أيلول.. يا لك من مخادع..!

أنا اراها إنها تهجم على يدك لتأكل، إنها جائعة فلتترك البسكويت جانباً لتأكله هذه الطيور المسكينة.

أتسمع صوت أقدام تدبدبُ نحوك؟

أنظر إلى الخلف يا أيلول..

أترى؟

أعرف بأن الشمس التي تستعد للغروب قد ضربت بوجه هذا القادم ولم تُعرف ملامحه ولكنهُ قادم باستمرار ولا يهمه شعاعها البرتقالي..

أريته قد بانت ملامح وجهه.. إنهُ يبتسم بحب، أنظر لعينيه كم مليئة بالأمل والرضا.

- إنهُ قادر يا ورد.....!

- نعم إنه قادر.. أنصت.. لا تتكلم

إنه يجلس الآن بقربك ويربت على كتفك.

أخبرهُ ما تريد اخباره وسَيسمعك.. سيجيبك.

بعدها فقدت أيلول.. أغلقت صوتي وأنا أنصت إليه بإنصاف لقلبه ومشاعره، فقد غادرني أيلول لمدة عشر دقائق كاملة.. أين ذهب يا ترى، أتراه قد استُفيد؟

- هل أنتَ بخير يا أيلول؟

حاولت إحضاره بشتى الطرق، ولكن عبثاً، أيلول لا يجيبني..

تركته لبضع دقائق أخرى..

- ورد!

أأنتِ هنا؟

- نعم، أنا هنا يا أيلول.. هل أنتَ بخير.. أخبرني؟

- حقاً نفعني هذا كثيراً، أكاد اجزم بأنني رأيته يتكلم.. رأيته يا ورد.

كيف فعلتِ هذا؟

- ألم أخبرك سابقاً بأن عقلك الباطني لا يفرق بين الحقيقة والخيال وأنه يصدق كلما ترغبه أنتَ، وأنا بدوري جعلت عقلك الباطن يستيقظ من

ضياعه ويجعل الخيال حقيقة.

دائماً ما أفعل هذا بنفسي وأرى بأنه يجدي نفعاً.

- ولكنكِ بالفعل دلكت عقلي يا ورد..

- يجب تدليك العقل بين الحين والآخر فالواقع مؤلم أحياناً!

- هل دائماً ما كنتِ تجلسين أمام البحر عند غروب الشمس؟

- نعم، أحب البحر كثيراً أشعر بأنه يأخذ من صاحب الهم همه إلى أعماقهِ ويبتلعها من دون أن يعطيها لأحد آخر غير ظلمته.

وأعرف أنه عند غروب الشمس يسمعنا الله كثيراً، فكثيراً ما ترفع أيدي في هذا الوقت من اليوم، فأردت أن يسمعك الله كي تستطيب نفسك ويأنس قلبك بمن لاقيته.

لأن الله قريب جداً يا أيلول.. قريب إلى الحد الذي لا تستوعبه عقولنا!

- هل تساعدين الجميع كما فعلتِ الآن؟

- لا، فهذه الخطوة لا اطلع أحد عليها اطلاقاً.. أشعر بأنها تخصني فقط ويجب أن تظل مقتصرة علي!

ولكنني نعم أحاول المساعدة على الأقل.

- تشبهين اسمكِ كثيراً.. تشبهين الربيع، أينما حللتِ أزهرتِ وجعلتِ المرج أخضراً وصنعتِ من الشمس غذاءً .. إنكِ مثل الأمل يا ورد نيسان، لا يستطيع أن يعيش الإنسان إلا به.

- ألم أخبرك سابقاً أن قلبي متاهة وردية تشبه طياته تلال الربيع التي يملأها الجوري؟

- وإن أخبرتني به ألف مرة يا ورد نيسان لن أمل من سماعه وسأود لو تخبريني به للمرة الألف وواحد!

- أو هكذا؟

- أحياناً اتمنى بأن يكون لي قلبٌ من حديد أتمالك نفسي عندما تتكلمين فلا أشعر بانهيار نبضاتي ولا تسارعها.

ولا أن أغوص في عينيك وكيف تبدوان بهذا الجمال وأنتِ في مواضعكِ العادية جداً.. كيف لكِ أن تكوني هكذا؟

احتل الصمت شفتي لحظاتٍ كثيرة لم أعرف مداها ولم أعرف بما أجيب..

بقيتُ أتفحص داخلي.. ما الذي يقوله أيلول؟

ماذا عساهُ يشرح وإلى أين يريد بي الذهاب؟

هو لا يعرف بأني أخاف الحب وأخاف الخوض في تلك المعارك الطاحنة وأن أخرج منها مجرد فتاة لا قوة لها ولا كلمة.

لا أريد حتى الاعتراف به داخلي.. فإن اعترف بك هذا يعني بأنني تقبلت فكرة الحب وأنا لا أريد تقبلها!

- أين أنتِ يا ورد.. لم تصمتين؟

- أنا هنا...

سآتي غداً إلى بابل وزميلتي زهراء دعتني أنا وصديقاتي إلى المكوث معها حالياً.

أنا لا أعرفها شخصياً ولكنني مجبرةٌ للذهاب مع صديقاتي إليها.. فأنا بمفردي يجب أن أتعلم!

- لستِ بمفردكِ يا ورد.. تقولين بمفردي كثيراً ولكنني معك... اعرفي هذا جيد المعرفة!

-حسناً.. أعدك لن أكررها!

- عندما تصلين إلى المجسر الذي ستقف سيارة السفر عنده أخبريني.. سآتي لأوصلك حيث منزل زهراء، وارسلي لي عنوانها الآن.

- هل حقاً..؟

- وهل تنتظرين أن أرى فتيات دفعتي وسط الشارع ينتظرن سيارات أجرة؟
بالطبع سأنقذكِ مع صديقاتكِ من هذا المأزق عزيزتي..
قالها بتكبر!
- آه سبايدر مان العراقي.. عيناي تمطر دموعاً لشدة تأثُّري الكبير بكلامك.. سيغمى علي من السعادة.
قال وهو يضحك بسخرية.. :
- آه أيتها الحمقاء لا تعرفين بأنني سأنقذكِ من مطبات الرياح..
صمت للحظات.. وعاد ليقول بجدية:
- سأكون فارساً لكِ بكل الحيوات ولن أسمح بأن تذهبي بعيداً، فَيشيخ نظري وتهرأ ابتسامتي يا ورد نيسان، لن أسمح بأن تؤذيكِ كلماتي ولا حبي، فأنتِ أسمى من أن تؤذيَن وتمتلئ عينيك بالدموع.
لم أعرف ماذا أراد بجدار الكلمات تلك، إنه يقول بأنه سيشيخ عمداً إذا ابتعدت عن قلبه..!
أيقصدُ بأنهُ يحبني هذا الحب الذي يحدث بين شخصين؟
أي ليس حباً عابراً كصديقة!
يا إلهي اعتقدُ بأن أيلول يحاول إثارة قلبي ويحاول هدم الجدار الذي ابنيه منذ أن انهيتُ مراهقتي ولكنهُ لا يعرف بأنهُ متصدع مُنذ أن عرفته!
فكل ما يعرفه أن هناك جداراً يجب أن يهدم وهو يسعى للخدوش....!

٢٠٢٠/٨/٤ م

١٢:٣٠ ظهراً

بعد طريقٍ طويل كنت قد اعتدت عليه وأحببته غالباً، وصلت إلى مدينة الحضارة بابل.. وكان أكثر ما يشدني إليها هي البساتين الكبيرة والمروج الخضراء على الرغم من أننا في شهر آب.

كانت مدينة بابل جميلة وملفتة على الرغم من هجرانها الخدمي والصحي غالباً..

أعرف أني وصلت إليها قبل أن أقرأ اللافتة التي ترحب بالزوار.

في لحظات وصولي تلك رن هاتفي..

- أين أنتِ الآن يا ورد؟

كان يجب أن تكوني قد وصلتي لمَ تأخرتِ هكذا؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- مرحباً.. أيلول.

دخلت الآن إلى المدينة وسأصل إلى المجسر بعد عشرون دقيقة.

- حسناً، أنا في انتظارك.

اتصلت على أبي لأطمئنهُ بأنني وصلت..

- السلام عليكم

كيف حالك يا أبي، أنا بخير وسيأتي أحد الأصدقاء لينقلني إلى منزل زهراء، لا تقلق.

- حمداً لله على سلامتكِ عزيزتي، دمتي في رعاية الله يا ورد.

اعتني بنفسكِ جيداً يا ابنتي!

- إن شاء الله.. مع السلامة.

وصلت إلى المجسر.. نظرت حولي وأنا في السيارة ولم أجد أيلول، أين هو يا

تُرى؟

سرعان ما رن هاتفي من جديد.. نظرت وإذ بهِ أيلول.

- هل وصلتِ؟

- نعم وصلت، ولكن أين أنت؟

- بقربكِ.. هيا انزلي فأنا انتظركِ منذ عام!

- هل تنتظرني منذ عام؟

- بل منذُ أن رأيتكِ للمرة الأولى وأنا انتظر أن اراكِ كل يوم من جديد!

- ومتى رأيتني المرة الأولى؟

ضحك ثم أردف..

- لا شأن لكِ.. انزلي الآن يا ورد هيا!

- حسنا، حسناً.

نزلت من السيارة وقلت للسائق أن يفتح صندوق السيارة لنخرج حقائبنا.. ولكن بسرعة جاء أيلول!

ألقى سلاماً والابتسامة ملء فاه!

- السلام عليكم..

الحمدُ للهِ على سلامتكنَّ لقد أنرتن بابل يا آنساتي.

- وعليك السلام أيلول.

شكراً لك ولكن ألا ترى بأن شمس آب هي مَن أنارت بابل، بل وأحرقتها.

- حتى وأنتِ متعبة تفتعلين المشكلات يا ورد.. ألا تتعبين من معارضتي؟

كانت تلك المرة الأولى التي تقع عيني بأم عينيه، ابتسمت واشحتُ بناظري بصمتٍ خجول!

كانت أيضاً تلك المرة الأولى التي أسمع فيها نبضات قلبي تتقاتل وكأنها تريد الهروب إلى شيء ما أو من شيء ما.

أصاب قلبي ويداي الارتجاف!

يا إلهي ما هذا الشيء الذي أشعر به.. ماذا يُقالُ له..(أ اندفاع أم ماذا) ؟

أنا حتى لم يعد بإمكاني النظر إليه خشية أن يكتشف تصارع نبضاتي أو عدم ثبات نظراتي.

من المستحيل أن أريه اهتزازي.. يراه حلماً في مخيلته فقط!

قاطعت انعزالي ندى صديقتي بصوتها وأدخلتني في نقاشهم!

- هل تعرف العنوان يا أيلول أم أنك تختطفنا؟

- سأخطفكُنَّ بالطبع.. لماذا هل تظنون أنني سأعيدُكنَّ أيتها الفتيات؟

نظر إلى المرآة الوسطى للسيارة وعيناه تتلبس عيناي!

كدت أختنق واعتقدت بأن قلبي من شدة خفقانه بدَا ظاهراً للعلن، وبَدوت محرجة جداً فلم اتفوه بكلمة ولا حرف صغير حتى خشيت أن يكون صوتي سبباً في ضعفي أو فضيحتي لأنني متأكدة بأنه سيرتجف من الكلمة الأولى ولن أعرف كيف سأصوغ جملة سليمة أمامه!

سأل وهو ينظر إلي من جديد:

- ألست خائفة بأن اختطفكِ كما تفعل ندى؟

- أفعل إن استطعت.. سأجعلُ منك غداءً للقردة..

قلتها بصوتٍ لا تكادُ تسمعهُ إلا ندى.

ضحكت ندى وقالت:

- لم القردة يا ورد!

- مضحكة وهي تأكل.. لا أريد أن أشعر بالذنب لأنني قتلته بل أريد أن أضحك.

- قال أيلول وتكاد عينيه تلتحف عيني:

- هل أجلبُ لكنَّ الطعام.. ألستنَّ جائعات آنساتي؟

أجابتهُ ندى بلا.. شكراً لك نريد أن نذهب إلى البيت فنحن متعبات.

يا إلهي لم ينظر لي بهذه الطريقة فلا أعرف كيف سأتكلم أو ماذا سأقول.

إنه ينظر وكأنني الفتاة الوحيدة التي تجلس بالسيارة!

أعترف بأن هذا الشيء لا يزعجني ولكنهُ يقلقني نوعاً ما.. لا أريد لشخص أن يزحزح رتابتي ويشتت ذهني، ولكن أيلول فعل هذا.

إنهُ شتت ذهني بطريقة جميلة جداً حتى نسيتُ بأنني كنت مسافرة ومتعبة!

لم يكن أيلول يحب صمتي أبداً فكلما تبدد الكلام وبان السكوت، أراهُ يقول شيئاً لأتكلم، وهذه المرة لأتكلم كثيراً فإنه يعرف نقاط ضعفي التي لا استطيع الصمت فيها!

- هل تودون سماع شيء ما.. فالطريق يبعد نصف ساعة!

ما زال ينظر إلي... إنهُ نسونجي لا يمل النظر!

هكذا قلت في نفسي من شدة توتري!

تركت عيناي تقف في مرساة عينيه لحظات كثيرة من الزمن وقلتُ له:

- كالعادة..

إنه يعرف بأنني أحب الأشياء القديمة جداً والتي تفوق أعمارنا.

ابتسم وقال كما في اللكنة العراقية «صار» ودنا برأسه قليلاً إلى الأرض ورفعه إلى من جديد بابتسامة طفيفة لا تكاد تغير إلا ملامح عينيه وشيئاً بسيطاً من صعود فمه إلى تحدب خديه.

لم يفوت هذه الفرصة وسريعاً ما وضع أغنية «أحلى امرأة في الدنيا » للشاعر نزار قباني.

سرعان ما بدأت: ...

هل عندكِ شكٌ أنكِ أحلى وأغلى امرأةٍ في الدنيا؟

هل عندكِ شك؟

وأهمُ امرأةٍ في الدنيا.. هل عندكِ شك؟
هل عندكِ شكٌ أن دخولكِ في قلبي هو أعظم
يومٍ في التاريخ وأجمل خبر في الدنيا؟
هل عندكِ شكٌ أنكِ عمري وحياتي وبأني
من عينيكِ سرقتُ النار وقمتُ بأخطر ثوراتي؟
أيتها الوردة والريحانةُ والياقوتةُ والسلطانةُ
والشعبيةُ والشرعيةُ بين جميع الملكاتِ..
يا أول قمرٍ يطلع من نافذة الكلماتِ..
يا آخر وطنٍ أولدُ فيهِ وأدفنُ فيهِ وأنشرُ فيهِ..كتاباتي..!
غاليتي أنتِ.. غاليتي أنتِ لا أدري كيف رماني الموج على قدميكِ!
لا أدري كيف مشيت إليّ وكيف مشيتُ إليكِ!
دافئةٌ أنتِ كليلة حُب.. من يومِ طرقتِ الباب عليَّ ابتدأ العمر!
أعتقد بأن هذه المرة الأولى التي أنصت بها معنوياً وليس حرفياً.. أنصت بتأهبٍ تام على الرغم من أنني أعرف جيداً كلمات تلك الأغنية.
طوال الطريق لم أنظر إلى عينيه مطلقاً...
(خفت أن أقع في حبه.. لن أقع في حبه.. فالحب يعثر الأحلام) أنا أقوى من أن أقع في الحب.
لا أعرف لماذا أعتقد أن الحب للضعفاء فقط، الأقوياء لا يضعون نقاط ضعفٍ لهم.. «اعتقدت هذا»!
سألتني ندى:
- ما الذي يشد انتباهك في الأغنيات القديمة وخصوصاً الفصيح منها ؟
- ما يشدني هو ما يكرهه جيلنا..
وأحبهُ لأنهُ فصيح، ولأنني أشعر بأن اللغة العربية تندثر شيئاً فشيئاً كلما

جاءت تلك الكلمات الغربية التي لا تمد لثقافتنا العربية أو الشرقية بشيء، إنها شيء مستحدث في غاية الاشمئزاز.

لا أشجع على اندثار العربية المبينة.

لا يجذبني هؤلاء الذين يتراقصون أمام الكاميرات ويقبلون الفتيات للحصول على عدد أكبر من المشاهدات والاعجابات، إنما يدعون به ليس شعراً وإنما كلمات كتباها شخص تخرج من مدرسة التفاهة.. وأخص بهذا المدعين بالفن وهم يتراقصون على الألحان فقط ولا يفقهون شيئاً.. لا يعرفون كيف يغازلون أو يحبون أو يناقضون في الحب حتى.. جميع الكلمات خائفة.. مهترئة.. ومصطنعة!

تكادُ هشاشةُ اللفظ والأسلوب أن يصرُخان ِ(أنقذونا من حنجرته).

ضحكت ندى.. وقالت:

- ولكن يا ورد أنتِ أكثر من يعرف بأن جيوشهم كثيرة ومشاهدات بالملايين يحتفون بها.. بنجاحاتهم!

- وأنتِ أيضاً يا ندى تعرفين بأننا نشجع مَن لا يستحق التشجيع ونترك الموهوبون الحقيقيون يأكلهم غبار الحياة شيئاً فشيئاً إلى أن يندثروا إلى الأبد!

وليست الكثرة بالضرورة صحيحة.. أما ترينَ بأن دور العلم خالية ودورَ الجهل ممتلئة على الرغم من تواجد العلم وعرضه بكثرة وأنهُ جزء لا يتجزأ من المجتمع أياً كانت عادات وتقاليد هذا المجتمع، ولكن عبثاً صديقتي فالجميع يتجه للأشياء سهلة المنال وإن قصر طريقها وكانت نزواتها مؤقتة وتافهة!

ليس بالضرورة أن تربح الفئة الكثيرة فالمعرفة الواسعة المحدودة أهم بكثير من الجهل الواسع اللامحدود يا ندى!

قال أيلول... إنه ينصت بأدب وبدون أن يقاطع..:

- اتمنى لو أن المعرفة المحدودة تلك كلها تصب في شخصٍ يستحقها ويعطي منها للأفراد حوله .!

نظرت إليه قليلاً وقلت:

- هناك من يعطيها أفضل مما أخذ منها، وهناك من يعطيها بمثل ما أخذ، وهناك من لا يعطيها وهذا لا يدخل في دائرة من أراد علماً لينفع به وإنما يدخل في دائرة من أراد علماً ليتكبر به فقد قال ﷺ «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية.. و ولد صالح يدعو له وعلم ينتفع به».

ابتسم أيلول ابتسامة طفيفة من جديد.. تلك الابتسامة الماكرة التي تربكني وتجعلني اتلعثم في نطقي.. وقال:

- من منهم أنتِ يا ورد؟

- ماذا تقصد مَن منهم؟

- أقصد هؤلاء الأصناف الثلاثة.. من منهم أنتِ؟

- ربما أكون لا أحد منهم..

- بل على العكس تماماً.

- إنك تعرف فلمَ تسأل..؟

- أحب أن أسمع صوتكِ..

يا إلهي ماذا يقول هذا الأحمق.. ألا يرى ندى أم أن عينيه أصابهما مرض... اعتقد بأنه مجنون..

عم الصوت الأرجاء ولم اتفوه بكلمة واحدة وكانت ندى قد ملئت حنجرتها ضحكات حتى تكاد تختنق من كتمها وهي تقول لي لا بأس عزيزتي..

ولكنه عاد ليقول..

- لِمَ تسكتين يا ورد ألم أسألكِ؟

- اعتقد بأنك مجنون لهذه الدرجة، ماذا يعني أريد ألا تسكتين...!

- يعني أريد ألا تسكتين.. «بتلك البساطة»، ألا تفهمين بالعربية.. لمَ

تستصعبين كلماتي يا ورد نيسان؟

آه يا إلهي إنه يقول ورد نيسان.....

قالت ندى:

- أورد نيسان؟

رد عليها أيلول:

- نعم إنها تشبه نيسان أنظري..!

ضحكت ندى بقوة حقاً هذه المرة وقال لي بهمس..:

- إنه عاشق يا ورد وهوَ من الآن فصاعداً لن يستطيع كتم الحب داخله فأقول لكِ هذا...

أصابني احراجٌ وتمنيتُ لو أنني أنام في تلك اللحظة..

- إنه ليس عاشقاً، بل مجنوناً صدقيني!

قلتها بهمس..

قال:

- لقد سمعتكِ.. أنا لستُ مجنوناً يا ورد نيسان.

وضعت يدي على وجهي والتفت على شباك السيارة وضحكت هذه المرة.. حقاً ضحكت ولم أعرف لم انتابني الضحك بهذه القوة.

شعرتُ بإحساسٍ جميل..

أن يعترف بك شخصاً يحبك للعلن هذا أجمل شيء قد يطارِح أفكار الإنسان.. بأن هناك أحد يحبه ولا يخجل من حبه ولا يخاف منه أو ما يكابدهُ من خسائر أو ألم!

لكم تمنيت أن يحبني أحدهم بدون أن يخجل.. أن يبوح بي فيقول «حبيبتي» إنها شريكةٌ لي في كل شيء حتى الألم وليس الحب فقط... لأن الحب ليس كل شيء، إنهُ لا يكفي لعيش الحياة.

ما فائدة أن يحبك أحدهم وهو خائف من أن يفصح عنك للغير؟
ما فائدة الحب إن لم يعتريه الأمان من كل حدبٍ وصوب؟
نحنُ نحب لنشعر بالأمان والامتنان معاً.. لتنخفض مشاعرنا و وتزداد في الوقت نفسه، لا يهمنا الحب بحد ذاته بكثرةِ ما يهمنا الإفراط في الأمان...
صحيح أن كل شيء زائدٌ عن حدهِ منقلبٌ ضده حتى الحب ولكن الأمان حالة استثنائية نادرة يخرج من تلك القاعدة.

وصلنا إلى العنوان..
هذا منزل زهراء أو اعتقد أنه منزلها لأن الخريطة تقول هذا!
قبل أن أنزل لأخذ حقائبي وجدت أيلول يفتح صندوق السيارة ووضع الحقائب أرضاً، وبدوري أخذت حقائبي وكانت لدي حافظة طعام صغيرة كنت أضع داخلها المعمول أو (الكليجة).
قال أيلول:
- هل هذه (كليجة) ؟
- نعم، إنها كذلك!
هل تحبها.. كأني أرى في عينيك قلوب صادقة تجاهها..!
ضحك أيلول وقال:
- بل أعشقها لا أحبها فقط..
- حسناً، فلتكن لك إذاً هنيئاً مريئاً.
- سلمتِ ولكـ..

- لا يوجد ولكن خذها.

أنا سأدخل لابد بأنهم افتقدوني.. وأنا متعبة والعين تحتاجُ للنوم!

- حسناً عزيزتي.. ولكن انا اسف لأنني أخذت المعمول خاصتكِ!

- لا بأس أيلول... مع السلامة!

- مع الحب عزيزتي ورد نيسان.

رحتُ ألف جسدي عنه ببطء شديد وكأن شيئاً يجرني نحوه ولا يريد مني الذهاب.. كأن جاذبية الأرض التصقت بعينيه وتجيء بي نحوها رويداً رويداً...

امشي مبتعدةً عنه فأسمع صوته يصيحُ في أذني..

- ورد...

التفتُّ إليه ورأيت الورد يتفتح في وجهه وعنفوان السعادة قد سيطر عليه تماماً حتى كاد يخرج من عينيهِ ليحتضنَ صوتي..

أجبتهُ بـ - ماذا؟

- حمداً لله على سلامتكِ.. نامي بقدر ما تشائين ولكن لا تغيبي كثيراً فتجف عروقي ويظمأُ قلبي و تتحارب أفكاري

فلا أكون إلا مجنوناً بالوصول إليكِ.

لم أقول شيئاً سوى (الله يسلمك) وأتخذ من خطواتي سيراً بعيداً عنه.

دخلت إلى المنزل وسلمتُ على زهراء و والدتها الجميلة (كانت طويلة ورشيقة للحد الذي تظنها به فتاة العشرينات)، هللا بي وَوجهاني إلى غرفتي لأستريح من عناء السهر والمكابدة.

لكنني لم أدخل إلى ذاك المنزل وأنا هي ورد.. ولم أخرج من عينيه سالمة مطلقاً!

شعرتُ بأن شيئاً داخلي بدأ يتحرك.. شيئاً لم أكن أعرفهُ من قبل، إنهُ

يشبه مطر الخريف!

ذهبتُ إلى المرآة فلعلها تكتشف ما بي..

نظرت إلى عيني.. أوه يا إلهي لماذا اصابهما جمالاً وأنا متعبة.. أعتقد بأنني جننت!

أنا لن أقع في الحب.. فأنا أقوى من الحب وأقوى من أن أقع بإرادتي واستسلامي...

«نعم كنت أواسي نفسي هكذا لئلا أشعر بالوخز في قلبي كلما تذكرته.. لئلا ارتجف عندما تصيبني عينيه»

لم أعرف ماذا أفعل، كان النوم آخر شعور أفكر به على الرغم من تعبي.. بقيت أذهب يمنة ويسرة، امشي إلى الأمام.. إلى الخلف.. اجلس متوترة كثيراً ولا أعرف كيف سيُساق شعوري وإلى أين سيُساق.

فضلت الذهاب إلى مريم والتكلم معها عن كل ما أشعر به، فلعلها تعرف ما بي وتساعدني على النهوض!

- أين أنتِ يا مريم؟

انتظرها تجيبني.....

كانت الدقيقة في الانتظار تعادل عاماً.. ولكنها سرعان ما جاءت

- هل وصلتِ بسلامة يا وردتي؟

- نعم، نعم وصلت ولكنني لستُ بخير،

لماذا لا تردين أين أنتِ يا مريم؟

- لماذا أنتِ متوترة لهذه الدرجة ما بكِ عزيزتي؟

- سأقول لكِ شيئاً ولكن لا أعرف ما هو، يقع على عاتقكِ معرفته!

- تمزحين غالباً!!!!

- أنا لا أمزح..

- حسناً يا وردتي، فلتقولي ماذا جرى؟

- أشعر بأن جمراً تحرك داخلي وأتخذ قلبي مكاناً له.. من أين انزاح الحجر ومنذ متى لا أعرف يا مريم.. صدفة أو منذ زمن بعيد، فأنا لا أعرف أيضاً!

لم أشعر إلا وكأنني أريد أن أطير، أريد أن أعانق الغيوم واقتطف النجوم من السماء عنوة وأضعها في سقف غرفتي!

أشعر بأن الأرض صغيرة جداً على احتضاني يا مريم..

لا أعرفُ ما هو الداء الذي علقت به؟

قالت مريم بعدم تصديق ما قلته..

- هل حاولتِ النوم يا وردتي.. لا بد من أنكِ متعبة!

- لا لم أنم..

أشعر بأن جسمي لا يتسعُ السرير، أنا مشي فقط منذ أن وصلت وإلى الآن..

أي منذُ ثلاث ساعاتٍ تقريباً.

قالت غير مكترثة لما أقول...

- حسناً..

دائكِ النعاس حبيبتي ودوائكِ النوم، فلتنامي ستصبحين بخير.

لم تنقذني مريم هذه المرة..

واعتقد بأنني أعرف السبب، كنت دائماً ابتعد عن الحب.. ابتعد عنه كثيراً «لم تصدقني هذه المرة».

هل عجباً أنا أهذي مثل كل مرة أشعر فيها بنعاسٍ شديد !

أوه يا إلهي ولكنني أشعر بالطيران وأنا متعبة لهذه الدرجة.

قاطع أيلول انفصامي هذا وتشردي برسالة واحدة:

- لماذا جلستِ في الكرسي الخلفي للسيارة ولم تجلسي بجانبي، مَن قال لكِ بأنني سائق أبيكِ الخاص؟

- أبي قال لي..

ضحك أيلول..

- أنتِ مجنونة اقسم بذلك!

استريحي الآن، أرآكِ غداً إن شاء الله.

بقيتُ صامتة..

صامتة ولكن رتابة أفكارِي متناثرة متزعزعة وأنا أحاول فهم ما الذي يحدث داخل رأسي وما الذي يجعل قلبي يركض بهذه السرعة !

لماذا عندما رأيتُ رسالة أيلول شعر فؤادي بالهوادة وأغلق جناحيهِ مستريحاً يريد السكون.. يريد الهبوط شيئاً فشيئاً بدون أن يصطدم بجدران الأوردة فيؤذيه تزحزحه!

هل وقعتُ في الحب أم غرقتُ فيه؟

وأي انتكاسةٍ هذه تنتشلني من عالم إلى كوكب لا أعرف التنفس فيه ولم آخذ شيئاً يساعدني للدخول فيه.

كيف سأعربُ تدهوري وبأي الكتب أجدُ الفاعل الذي رفعني إلى عروش الكروم و تركني فيها!

هل سأنجو من ديمومة الأفكار هذه غداً وأعود كما كنت بجدران فؤادي القوية..!

تارةً أنظر إلى خفقان قلبي وتارةً أخرى إلى ذاكرة عقلي.. فيخفقُ قلبي بقوة أكبر.

تأملتُ الخسارة قبل الربح والألم قبل السعادة.

ولكنني كنت سعيدة لجميع الضياع الذي اغتالني ومن دون أن أكترث!

أردتُ أن أعيش شعوري وهوَ متلبساً بي حتى وإن لم يكن هذا الشعور تحت التسمية، فعلى الأكثر المحبب سأودُ البقاء فيهِ إلى الأبد!

١٠:١٢ صباحاً

في مكتبة الجامعة.

دائماً ما كنت اتملص من صديقاتي فإني أود الهروب إلى مكتبة الجامعة، أريد أن أتصفح الكتب أو حتى فقط انظر إليهم واتفقد أسماؤهم.. أو أن أشم رائحة الكتب وأوراقها وقصصها المختلفة التي سُطرت بين درابين الصفحات.

وكنت لأكمل سعادتي أضع إحدى الأشعار المناسبة والهادئة نوعاً ما وارتدي سماعتي كي لا يُرى استجمامي بالعين المجردة ولا تُسمعُ سعادتي!

بينما كنت أدور بين صفوف ورفوف المكتبة واضعُ سعادتي على كتبها البريئة، سمعتُ إحداهُن تبكي خلف الرفوف..

تبكي بصمت (أو هكذا كانت تعتقد)*

دنوت منها بصمت المفترس لفريستهِ فلم أرغب بقتلها من جديد عندما تعلم بأن بكاؤها كان له صوت وأن هناك مَن سمعها.. سمعَ أنينها الصامت!

كانت تجلس أرضاً وتضع جبهتها على ركبتيها وتحتضن رجليها..

كان في شهيقها ألماً وزفيرها حطام الألم..

كانت تشبه كومة حريقٍ خامدة!

جبنتُ من أن أرهقها فتسللتُ من خلف ستائر الكتب ورُحتُ مبتعدةً عن حريقها الخامد..

سمعتها تقول:

- رأيتكِ.. لا تذهبِ، احتاجُ إلى مَن يحتضنني..

توجهتُ إليها بكامل سرعتِ واحتضنتها.

لم تطفئ الدموع حرائقها ولم تستطيع يداي مساعدتها على الثبات لأنهما

كانتـا ترتجفـان وكأن الواقـع قـد أصابهمـا.

قلتُ لها مواسية..

- اهدئي.. لا بأس سيمضي.. كل شيء سيمضي أعدكِ.

كنـتُ أعـرف جيـداً بأن الإنسـان حـين يبـكي وهـو في حرائقـه لا يريـد سـؤلاً ولا يريـد نصـائح ولا يريـد أن يـتم توبيخـه.

كل ما يحتاجه هو كتف يبكي عليه ويدٌ تربت على رأسه وتقول:

«لا بأس.. سـيمضي.. سـتصبح أفضـل حـالاً أعـدك.. أنا بقربـك لا تخـاف سـنجابه كل شيء معـاً»!

لأن لـو سـألته مـا بـك وهـو منهـدم لهـذه الدرجـة مـن المحتمـل أن تزيـد سرعـة بـكاءه وتدهـور نبضـات قلبـه وبالتـالي تألمـه تألمـاً يزيـد إصراراً عـلى حـاله..

وبذلـك لأن العقـل لا يسـتقبل الأسـئلة ولا النصـائح في حـالة الحـزن الشـديد.. هـو فقـط منشـغل بمـا حـدث وربمـا سـيقول في نفسـه..

«ما الذي يتفوه به هذا الأحمق وأنا أبكي»؟!

هدأت تلك الفتاة التي توسدت كتفي..

- أ أنتِ بخير عزيزتي؟

قلـت بصـوتٍ لطيـف ليشـعر قلبهـا بالأمـان ولا تخـاف مـن كونهـا انهـارت أمـام شخـص غريـب!

ردت عليّ.

- لا أعتقد أنني بخير اطلاقاً!

- تودين أن ترتاحي من ثقل قلبكِ وإرساله إلى شخصٍ لا يعرفكِ؟

- لا بد من أنكِ تتساءلين سقوطي بهذه المكتبة ولهذه الدرجة..!

(أحببت رجلاً وعرفت بأنهُ متزوج)، هذه قصتي الكاملة.

- أحببتِ ذكراً وعرفتِ بأنهُ متزوج..!!!!

- نعم..

- أتبكين ذكراً أحمق؟

- بل أبكي خذلاني وتشتتي.. أبكي خيبتي اللامتناهية!

لا أبكيه بل أبكيني وأبكي سذاجتي ومدى حبي له.

- أنتِ لستِ ساذجة.. أنتِ أحببت فقط شخصاً لا يستحق القبول وهذا ليس ذنبكِ عزيزتي!

- أنا الآن لا أعرف مَن المذنب ولا أعرف كيف أتخلص من هذا الشعور الزائد في الألم.. جئتُ إلى المكتبة وحسبتُ بأن لن يراني أحد لأنني أعرف بأن هذه المكتبة شبه مهجورة!

حسبتُ بأن لن يرى أحد انكساري!

- ولكن مَن رآه؟

لا أعتقد بأن أحد رآكِ أو سمعكِ، أنتِ الآنَ بمفردكِ في هذهِ المكتبة بين الرفوف الخشبية.. تتنصت عليكِ الكتب.

ابتسمت من دون أن تبوح بشيء وقد كانت غارقة في الدموع ورمشَيها مجاديف الإنقاذ!

أخذت شهيقاً وابتلعت زفيرهُ وأردفت:

- شكراً لكِ قد منحتني كتفاً بللتهُ بدموعي ويداً طبطبت ألمي.. لن أنساكِ!

نهضت من على الأرض متجهة للخروج من المكتبة....

ولكنها التفتت وقالت :

- الكتب أصدقاءٌ رائعين، هناك سطرٌ من كل كتاب يعبر عنا ويشعر بنا دون أن نتكلم.

الكتب لا تبوح أسرارنا ولهذا السبب بكيتُ حطامي في المكتبة وبين جدران تلك الكتب القديمة...

ما أسمكِ أنتِ أيتها الصديقة؟

- كتاب..

- ماذا..؟!

- اسمي كتاب.

ابتسمت تلك الغريبة ولِعطش قلبها ابتلعت دموعها رياً وذهبت إلى بلاد الحزن بعيد!

بينما أنا أُسِرت في عينيها.. خرجتُ لأستنشق بعض الهواء..

تارةً أمشي وتارةً اجلس.. يا إلهي أصابني شيئاً من قلبها الدامس فكيف ستعيش الآن مع هذا الألم وحجم الخذلان هذا..

هل تستطيع أن تضحك بحرية بدون أن يطرأ هذا اليوم في مخيلتها الأبدية ويحجب مواطن السعادة عن عين قلبها؟

قال لي أحدهم ذات ليلة: «كان من المحتمل أن أصبح مجنوناً كَمجنون ليلى وشاعراً يتغنى بألمه على الهضاب لو لم أتزوج حبيبتي ولكن الفرق سيكون مجنون زمردة»

يا إلهي..

هل ستصبح هذه الصديقة التي تحب الكتب شاعرة؟

ولكن هل يجب على الشعراء أن يتألموا ليكونوا شعراء؟

و نترنم نحن بقصائدِهم ونرقص على ألم!

شعور الخذلان هذا أسوء شعور قد يحسهُ المرء.. فكل الأحداث بعد الخذلان تافهة!

اعتقدُ بأن أبو الطيب المتنبي قال هذا البيت عندما وصل لحالةٍ من الخذلان العميق:

كَفى بِكَ داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

أقِلَّ اشتياقاً أيها القلبُ رُبَما رأيتكَ تُصفي الودَّ مَن ليس لهُ جازِيا

إن كنت أنا أشعر بتلك الوحدة واليأس في قلبي، فكيف بها هي؟
اجلس على مقعدٍ تعلوهُ شجرة الأكاسيا ذات الورد الأصفر وروحي ما زالت بتلك المكتبة.
اسمعُ صوتاً هادئ يأتي من قريب أم بعيد.. لست متأكدة!
أوه يا إلهي إنهُ هاتفي..
أخرجت الهاتف من حقيبتي وإذا بي أرى اسم «أيلول»
ابتسمت!
لماذا أشعر بالسعادة وأنا حزينة.. هل جُنت مشاعري؟!
فتحت الهاتف وقلتُ:
- مرحباً
- أين أنتِ يا ورد لماذا لم أرآكِ إلى الآن.. ماذا تفعلين؟
بقيتُ صامتة تماماً..
إنني أراه من بعيد وهو يمشي باتجاهي ولكن لم يراني بعد.
كانت تلك المرة الأولى التي أراه بها جيداً وأعرف بها تفاصيل وجهه واستدارته وكيف يتكلم والأسئلة ملئ وجهه!
كانت عيناه مثل الفحم سوداء، وكان طوله الذي يقارب المائة وخمس وسبعون لا يحمله لأنه لم يسمع صوتي إلى الآن، أرى توتره.. انقباض يديه وانبساطها.. تحرك عينيه يميناً وشمالاً.. قدماه اللتانِ تتراوحانِ في مكانهما ذهاباً وإياباً.. رفع يده ليبدأ تزايد التوتر بحك أنفه وحيناً آخر جبينه..
كأنني عدت إلى وعيي وهو يقول:

- أرجوكِ فَلتجيبي.. قدماي لا تتحملان جسدي، أشعر وكأنني سأسقط.. أين أنتِ يا ورد؟

- أنا اسفة..

ولكن غلبني التأمل شيء ما ونسيت بأنني أتكلم معك!

على كل حال.. أنا أجلس في المقعد الذي تعتليه شجرة الأكاسيا على بعد خمسة عشر متراً منك.

- هل كنتِ تنظرين إلي بينما كنت أنا قلق.. اقسم بأنكِ مجنونة!

- لم أكن أنظر إليك.

- كاذبة..

رأيتكِ سآتي إليكِ حالاً!

اغلق هاتفه ومشى إليَّ خطواتهِ السريعة وأنا أراقب تلك الخطوات وأراقب قلبي.. رأيت يداي ترتجف وصار جسدي يتصبب عرقاً.

سألني..:

- أين كنتِ طوال اليوم يا ورد نيسان، بحثُ عنكِ في كل مكان ولم أجد ريحاً منكِ !

- هذا لأنني لم أكن في أي مكان بحثت فيهِ عني..

- أين كنتِ؟

قالها بغضب!

- وما شأنك أنت؟

كنتُ أعرف جيداً بأن «لا شأن لك» تثير جنونه مني.. ولكنني لا أخاف من جنونه!

- ماذا تقصدين بـ لا شأن لك؟

- أقصد ما قد قصدته!

ثبت بصره بعيني وهو صامت حتى اعتقدتُ بأنه لا يتنفس من شدة سكونه، لم أكن متوترة لا أعرف كيف صمدت ولكن كل ما أعرفه بأنني لا احرك عيني موضع رمش إذا جئت أتحدث أمرٌ جدي وأنا معتادة على هذا الأمر من الثبات..

لكن سرعان ما حطم أيلول غروري وثبات نظراتي عندما قال:

- يا الله.. عيناكِ، لا تنظري إلى أي أحد بهذه الطريقة يا ورد نيسان.. لا تنظري لأحد بهذه الصلابة غيري!

أردتُ أن أبدد توتري فقلت:

- ما شأنك أنت إن نظرت وإن لم أنظر؟

- أ تمازِحيني يا ورد.. أتكلم بجدية مطلقة!

- سأعودُ إلى صديقاتي، أراك لا حقاً أيلول العزيز.

- لا تستطيعين تركي والذهاب هكذا!

- مع السلامة.

كانت خطواتي متثاقلة.. نعم إنه محق لا أستطيع تركه إنه أحمق يعرف كل شيء.

قلبي يرتجف وأنا بالقرب منه وسجنتُ في مشهد عينيه.. لا أستطيع تركه ولا أستطيع البقاء.. يجب أن أهرب بعيداً كي لا يكتشف ارتجافي.

أنا بحاجة صديق الآن ليقول لي لا بأس لم يرى أيلول تدهور قلبكِ وأنتِ بالقرب منه ولم يرى تركيزكِ على بؤرة صوته وألحان نطقه..

تذكرت صديقة المكتبة وتذكرتُ بأنني املك كتاباً في حقيبتي.

أخرجتُ الكتاب.. ضممته إلى أضلعي ورحتُ أبحث سطوراً تعرفني..

لعلها تخبأ شيء بين الزوايا.. لعلي أجدُ جملة تحتويني أو رسالة مجدٍ بعثت إليَّ عن طريق كاتب لا يعرفني.

فرأيت جملة احسستُ بأنني أقرأها للمرة الأولى على الرغم من أنني قرأت الكتاب هذا ثلاث مراتٍ وكانت:

« سِر إلى حيثُ يميلُ قلبك» أعدت قراءتها عشرات المرات وأنا أنظر إلى أيلول في كل مرة وشعرت بأن مكابرة الحب لدي قد أبدت نفادها واستوت على الأرض الجرد.

وحينها سرت إليه بقلبي واعترفت به في أنحاء جسدي!

لم أستطع أن أخبئه أكثر فاختنق به واستنشقهُ في الوقت نفسه فقد..

أفصحت عن هوانا كُل ساجعةٍ حتى الحمامة باتت ذات إفصاح

دائماً كنت أقول لن أستشعر الحب يوماً في قلبي.. لن أسمح بأن اكون فتاة ضعيفة تمتلك نقاط الضعف في أرجاءها وتترك الشموخ دائماً ولكنني أحببته وغلب حبهُ كيدي وعيناهُ حَطمت ثباتي.. شردتُ نفسي إليهِ راكضةً بقولهِ لي أنهُ الوحيدُ الذي سيكمل ذاتي..

لستُ نصف ذاتٍ ولكنني أحتاجُ إلى نقاطي!

لم أكن لأخاف السير تحت المعصرات إن أغدقت بالسيول الجرافات ولكن أنا هنا الآن أخاف أن أقف تحت عينيه فتهزم قوتي وتستباحُ هيبتي...!

وبينما كنت أعترف بأيلول في أنحاء قلبي قاطعت مريم صمتي المعتاد وكانت قد اتصلت عشرات المرات ولكنني لم أسمع صوت هاتفي بسبب ضجيج الجامعة وضجيجي!

- ورد.. لما لا تجيبين.. أقلقتني؟

- أنا بخير لا تقلقي يا مريم ولمَ القلق؟

- كيف ألا أقلق وأنا اتصل بكِ منذ ساعة كاملة وأنتِ لا تردين..

لا تنسي يا ورد أنتِ هناك وحيدة ولا يوجد من تثقين به أو نثق به، ولهذا أقلق كثيراً عليكِ ومن أن يصيبكِ شيء ما يا عزيزتي.

- لستُ وحيدة يا مريم!

أطلقتُ هذه الجملة بجميع هدوئي الذي رزقت به في تلك اللحظة.. ولكن مريم قالت:

- كيف لستِ وحيدة.. أم وجدت من عوضتكِ بعدي أيتها البلهاء؟

ضحكت.. ابتسمت.. واطلقت العنان لكلماتي!

- لا، فأنا سعيدةٌ جداً بكونكِ صديقتي الوحيدة والتي لن يأتي مثيلٌ أو نظير بقلبي لها.. تعرفين هذا جيداً أيتها الغيورة!

أنتِ أختي فهل يستطيع المرء أن يغير أخ له متى شاء؟

- بالطبع لا يستطيع!

ولكن ماذا قصدتِ بـ لست وحيدة؟

عمَّ الصمت حديثنا فجأة.. وصرخت مريم..

ورد...!

أنظري أنا أجزم بأن أيلول هو السبب، ولكن انتظري أنا لا أريد سماعكِ الآن، سأنتظر مجيئكِ!

أريد أن أنظر في عينيكِ وأنتِ تبوحين به إليَّ، فأنا أعرفكِ جيداً يا ورد وأعرف عينيكِ وأنتِ تتكلمين بحب، أشعر وكأنهما يريدان البكاء لشدة لمعانهما.

عندما تتكلمين بحب عن شيء ما أو شخص ما فإنكِ تبتعدين بناظريكِ إلى الأرض وتبتسمين « تشعرين بالخجل «

أعرفكِ جيداً ولهذا السبب لا أريد أن اسمع صوتكِ فقط أريد أن أراكِ وأنتِ تغدقين الحب على أيلول.. أريد أن أرى كم هو محظوظ حقا، كيف استطاع فتح قلبكِ وأنا الذي ظننتكِ تهذينَ في المرة الماضية!

- هل تمسكين يدي دائماً يا مريم وتضعينني في النور ؟

- تعرفين بأنني لن أفلت يدكِ عزيزتي ورد..

لا أريد لقلبكِ أن يذبل فيكون صحراء لا ماء لا ورد لا شجر!

- على الأقل أنا مثلكِ يا مريم.. أريد أن أحافظ على غابات قلبي بدون خسائر جمة، ولكنني أيضاً أعرف بأن الحفاظ على القلوب دون أن يكون هناك ندوب أو كوارث فهو شيء شبه مستحيل، لأن الله جل جلالُ اسمه اللطيف يقول:

« خُلِقَ الإنسانُ فِي كَبَدٍ» فلا نستطيع الهروب من الألم ولا من القدر الذي حتم علينا.

ولهذا السبب يكفي بأن نكون أقوياء ونتمكن من الخروج بالخسائر المُمكنة التي تمكننا من زرع الشجر في أنحاء قلوبنا وتغطية الندوب لئلا نراها يومياً ونعاود البكاء حتى بعد أن تُشفى.

- بقولكِ الخسائر الممكنة يا ورد.. هل تقصدين الخسائر التي اعتقدنا بها وطرأت أفكاراً بعقولنا؟

- نعم، كذلك!

- وإن لم تكن تلك الخسائر ممكنة وكانت تلك التي لم نفكر بها ولم تطرأ على عقولنا أبداً.. هل سنستطيعُ تغطيتها بالشجر أو هل سيبقى لدينا شجرة واحدة لنزرعها من جديد و نطبطب على خسائرنا بقولنا نحن أقوياء..؟

- الخسائر التي كانت مستحيلة بالنسبة لنا، هي التي ستجعل منا الصحاري الظمئة والسهول الميتة، ولن يستطيع الضعيف منا تلافي شيئاً أو إعادة ما فُقد إلا بالتعويض الموازي تماماً أو بإرجاع ما قد تلف واعتقد بأن الأمران غير ممكنان على كوكبنا!

بالطبع ما ستورثهُ تلك الخسائر هي بكاء الجسد بصمت لا يعلمه إلا صاحب الألم!

- أ تعلمين يا ورد..

سمعتُ مرة قصة تذكرتها الآن وسأقولها لكِ... اسمعيها جيداً.

- أخبريني.. جميلتي!

- حسناً فلتنصتِ!

أحبت فتاة شاباً حتى هامت به لدرجة العشق وأصبحت لا ترى إلا هو.

فغاب عنها لمدة تصل إلى الأربع سنوات دون أن تعلم سبب غيابه حتى عم الخراب داخلها وصارت لا يُرى مسكناً ساكناً لها!

جاء بعد السنة الرابعة.. جاء وليس معهُ أعذارٌ أو مبررات!

جاء فقال بكل قسوة: أنه كان يراها في كل مكان يذهب إليه.. يراها بدون أن تشفق الأيام لحاله وترثي.. وحتى في أشد اللحظات بؤساً كان يراها وفي أكثرها حباً يراها أيضاً.. إنها تخرج من أفكاره وكأنها استحلت الذاكرة كلها.

فأخبرتهُ تلك الفتاة.. لماذا عدت الآن؟

لماذا وكنت قد أحرقتني منذ سنوات دون أن أعرف السبب؟

تركتني عمياء وأنا في نظري وصماء وأنا في سمعي.. والآن هل أتيحت لك الفرصة لأصمت إلى الأبد بفضلك؟

فقال لها باكياً:

أنني كلما جئت أبتعد اجد شيئاً يمنعني.. شيئاً يطيحُ بي إليكِ، لم أكن سالماً أنا أيضاً دفعت ثمناً بقلبي..

أحببتكِ ولكنني كنت جباناً فأردت السفر خارج البلاد كي لا أعود.. وها أنا الآن أمامكِ مجدداً..

(أحببتكِ ولكنني كنت جباناً).

فقالت تلك الفتاة وهي تقرأ قصتها..

عندما كنت أدعو للهِ (جل جلاله) وأتوسل إليه كنت أقول دائماً.. «

اللهم إني سلمت قلبي إليك وأودعته بين يديك. «

فسلم قلبي!

استودعي الله قلبكِ دائماً يا وردتي فإن عند اللهِ (جل جلاله) ودائع لا تضيع وصلوات تستجاب أدعيتها.

استودعي الله كلما تحبين وما تتوقعين، ليحميكِ من شر الخسائر الفادحة ويتطرق قلبك وعقلكِ تهيئةً لما ستخسرين!

رددي دائماً.. « استودعكَ اللهم قلبي وعقلي « فنحن أمة تسأل في السجود وتعطى في الخضوع.

- استودعك اللهم قلبينا.

عندما قالت مريم هذا شعرت بوجود الله (جل جلاله) بداخلي.. استشعرت عظمته ولطفه بنا.. بعبادهِ الفقراء والضعفاء إليه دائماً، حقاً وجود الله مريح في كل مواطن الحياة ونواحيها، فلا يلبث المرء بحزن إلا تذكر وجود الله معه أينما كان إنهُ القريب جداً... القريب من أفكارنا.. من عقولنا... وحتى من بطش ايدينا.

لا يستطيع الإنسان أن يعيش هذه الحياة وهو غير واثق بما سيحل به من ربه.. سيبقى خائف دائماً ولا يريحه شيء اطلاقاً..

فأنا كلما جئت لأتخذ من اليأس بيتاً تذكرت الله وتذكرت الحديث القدسي: « أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملئ ذكرتهُ في ملئ خيراً منهم، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربتُ إليهِ ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ منهُ باعاً، وإن اتاني يمشي أتيتهُ هرولة»

إنهُ الله..

يقول لـ سيد الكونين والثقلين محمد ﷺ: « وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدَاعِ إِذا دَعانِ»

وأكمل (جل جلاله)..« فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ»
رحمة الله في عبادهِ ولطفه بهم جميلة جداً!
نحنُ محظوظون بوجود الله داخلنا.. محظوظين ونحن نجتاز تلك الحياة بقول « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»

٨:٣٦ مساءً

اتصل أيلول وقال لي:

- أتريدين الذهاب في نزهة غداً؟

- إلى أينَ يا أيلول فالجو حار جداً!

- لا عليكِ..

أتريدين الذهاب؟

- حسناً ولكن مع من، وإلى أين؟

- ألم تكن لديكِ رغبات قوية بالذهاب إلى آثار بابل واستكشاف المناطق الجميلة فيها؟

سنذهب غداً بعد أن تنتهي الجامعة!

- حقاً؟

هل سنذهب غداً يا أيلول؟

- نعم، فأنا أخبرتكِ بأنني سأفعل أي شيء لأجل ضحكتك يا وردَ نيسان.

- أي شيء؟

- أي شيء..

لم أكن أستطيع الخروج معه بمفردي.. فإن فعلتها يكتشف أمري وسيعرف بأنني مغرمة بعينيه فقلت له:

- سأخبر ندى وزهراء ليأتيا معنا، ما رأيك؟

- كما تشائين يا ورد نيسان.. المهم أن تكوني سعيدة بكل شيء تفعلينه!

ولكن سنذهب للغداء أولاً ومن ثم نجول في أنحاء المدينة هذه.

أخبرتُ ندى وزهراء بأنني أريد الذهاب غداً مع أيلول و أصريت على قدومهنَّ معي ولكنهنَّ أبين ذلك وقالت ندى:

- عندما أخرج من الجامعة أخرج متعبة ولا أستطيع أن أستمتع.. أذهبِ عزيزتي واستمتعي بوقتكِ.

وأردفت زهراء:

- لا يمكنني الذهاب، لدي موعدٌ مع طبيب الأسنان..

استمتعي بوقتكِ يا ورد!

إنهنَّ يمزحن غالباً.. كيف سأذهب بمفردي مع أيلول، أنا أقسم بأنني لن أنجو من عينيه أو نظراته!

لم أعرف كيف سأقول لأيلول بأنني سأذهب بمفردي..

أوه...

ارسلت له بدون مقدمات..:

- ندى و زهراء لن يذهبن سأذهب بمفردي.

قال بمرح ومكر:

- هكذا أفضل.. دعيني انظر إليكِ بحرية!

إنهُ مجنون غالباً.. كيف سينظر لي بحرية أكثر من تلك الحرية التي تفضح عينيه ويستطيع المرء أن يعرف مدى حبهِ لي!

إنهُ دائماً يقول انظري لعيني وستكتشفين كمية حبي لكِ وتعلقي بكِ.. العين لا تكذب يا ورد، إنها أصدق شيء خلق ليفضح مشاعرنا وما نخبئه!

٣:٤٤ عصراً

في إحدى القصور الرئاسية القديمة.

أنهينا الدوام الجامعي الطويل والمليء بالامتحانات التي لا تنتهي، وبعد أن أعطيت خبراً لندى بأنني لن أعود اليوم إلى البيت إلا متأخرة.. قبل غروب الشمس ونزولها من أعلى قمة في بابل!

صاح لي أيلول وأنا أقف عند باب كليتي أتناقش مع أحد الزملاء وكان ممتعضاً لم يلقي السلام حتى!

قلت:

- أهلاً أيلول..!

- ماذا تفعلين هنا؟

و لماذا تقفين وتبتسمين بوجه هذا الفتى وتنظرين لعينيه بهذه الجرأة المطلقة.. ألم أخبرك سابقاً بأن لا تفعليها أبداً؟

ألم أخبركِ بأن لا تنظري (بعيون العالم) وأنتِ تتكلمين!

لماذا أنتِ عنيدة لهذه الدرجة.. لماذا لا تنصتين إلى الكلام يا ورد نيسان؟

نظرت بعينيه بتلك الجرأة التي اعتدت أن افعلها مع الجميع!

- ما شأنك أنت؟

أنظر إلى حيث أريد وأينما أريد وكيفما أريد!

سمعتُ صوت طقطقة أصابعهِ و شدهِ على أسنانه.. رأيتُ الغضب في عينيه..

ولكن أيلول تفَادى المشكلات الناجمة عن عنادي... إنهُ هادئ دائماً..

- عزيزتي ورد نيسان..

أنا أعرف بأن جرأتكِ هذه نابعة من قوتكِ الداخلية، فأنتِ قوية جداً إلى الدرجة التي تجعلكِ تنظرين إلى وجوه الآخرين دون أن تتوتري أبداً أو يرتجف رمشاكِ، ولكن الشخص المقابل وخصيصاً إذا كان رجلاً سيفهمكِ بأكثر الطرقِ خطأً وأكثرها بعيدة عنكِ.

وسيحاول تفسير قوتكِ الشخصية على أنكِ تحاولين جذب انتباههِ، ولا أريد أن يظن هذا أحد.. لا أريد أن تجذبي انتباه أحد.. أرجوكِ.

نظرت إليهِ بنفس الثبات محاوَلةً مني لجذب انتباههِ كما قال.. وابتسمت طوعاً وقلتُ:

- حسناً.. سأحاول، أعدك بذلك.

- لا أريد المحاولة يا ورد.. استعجلي التطبيق أرجوكِ ولا تتركِ الأشخاص يغوصون في وديان عينيكِ.

- لا تلقي الأوامر لا أيلول!

- ليست بأوامر، أنا اطلب منكِ فقط..

يا ورد نيسان.

أحببتك لأنك تعرف كيف تحميني من غير أن تقول أنا أحميكِ وكيف تحبني من غير أن تقول أحبكِ، وكيف باستطاعتكَ امتصاص غضبي وتفكيك عنادي الذي تكرهه بدون الصراخ في وجهي الذي يجعل مني صخر بركاني حديث الانفجار، ساكنٌ ولكنه يحرق!

تتجنب انفجاري والحروق التي يسببها الانفجار بقولك (لا أرغمكِ).

تعرف الإرغام يجعلني افتعل العناد من جديد ولن تصل معي لنقطة واضحة على الإطلاق..

أحببتك لأنني أعرف لن يأتي لقلبي أحد كما أتيت أنتَ إليه.

من جديد قاطع أيلول سكوتي وقال..:

- هيا بنا يا ورد نيسان لنخرج الآن قبل أن يحل المساء.. ولكن في البداية ماذا تريدين أن تأكلي وأين؟

- لا أدري.. لست جائعة!

- سآخذكِ إلى مكان يطهو طعاماً سورياً لتعيدي النكهات القديمة إلى فمكِ ما رأيكِ؟

- أقول لست جائعة..

ضحك أيلول مني وقال:

- أعرف ولكن ستأكلين يا عزيزتي لا توجد اعتراضات صدقيني!

- هل تمزح؟

- لا بالطبع، أنا أقول الحقيقة.

بعد خطواتٍ ليست بكثيرة وصلنا إلى السيارة وما أن ركِبتُ فيها رأيتُ وردةً جورية بيضاء طويلة الساق وجميلة العطرِ تشبه في تفتحها ليلة البدرِ! رفعتها من على الكرسي وجلستُ أُقلبها يمنة ويسرة وأشم رائحتها الزكية وأنا مليئة بالسعادة حتى أنني نسيت نفسي.

قال أيلول:

- أعرف بأنكِ تحبين الورد كثيراً ولكن لم أجد بعد وردة تليق بيديكِ ولكن بائع الورد اقنعني أن أحضر هذه الورد عندما قال (إن الفتاة التي أسمها ورد لن ترد أي وردة كان شكلها).

ووجدت ما قاله صحيحاً وأن هذه الورد عندما وقعت في يديكِ ازدادت رونقاً وجمالاً وأنني أردت شراء سعادتكِ يا وردَ نيسان لا الورد، لأن جميع الورود تجلس معي وأراها كل يوم ويصيبني من ربيعها الدائم ما قد يصيب الإنسان وهوَ في شهر أيلول.

أنا لا أحتاج لفصول السنة وأنتِ معي يا ورد نيسان لأن كل ما يساعدني على استمرار حياتي هو أنتِ..

فحرارة الصيفِ تلفحها نسماتٌ من ضحكات شفتيكِ وبرودة الشتاء يحتضنها دفء عينيك وخريفي يقي تساقطه إمساك يدكِ.. أما ربيعي فبقلبكِ يا وردة نيساني.

كل ما أحبهُ هو أنتِ.. وكل ما أريدهُ هو أنتِ.

كُنتِ النور في عتمتي والوطن في غربتي.

لا يمكن لقلبٍ أن يفعل بي ما أنتِ فاعلته.. أنتِ الحب يا ورد نيسان!

قال أيلول كل هذا وهوَ ينظر إلى عيني.. ولكن الغريب بالموضوع بأن قدماي ترتعش ولكن عيناي ثابتة وقلبي ثابت وكأنهُ يريد الإنصات لا الارتعاش.. إنه ليس وقت الارتعاش والهروب، بل إنهُ حتى اطفئ الأصوات الأخرى كلها ليسمع ما يقوله أيلول كلمةً تِلو الأخرى بدون مقاطعة النبضات التي تهذي دائماً وتريد الهروب من صدري!

يا لجمال عينيهِ وهو يتكلم هكذا..

أنظر إليه وأتساءل..

هل حقاً صوته أجمل صوت قد مرَّ على أذني أو عقِله قلبي؟

لا، لا اعتقد.. ولكنني عاشقة!

ساد الصمت للحظاتٍ كثيرة.. ثم كسر هذا الصمت وضياعي بكلماته التي قالها.. نظر إليّ من جديد وعينيه تلمعان وقال وهو يشير إلى المسجل..

- هل شعراً أو غنوةً... أم تريدين صمتاً؟

- شعراً عزيزي.. فإن بالشعر كلمات لا تفقه قولها العقول!

- أ تقصدين بأن الشعراء يتحدثون أفضل مني..؟

ضحكتُ.. وضحكت.. ومن ثم رأيته يضحك..

- مجنونة أنتِ!

- لا أعتقد بأن الشعراء يتحدثون أفضل منك ولكنهم يتحدثون أفضل مني.

- تقولين هذا..

برأيك..

لماذا وصف نزار قباني الحب بهذه الطريقة؟

- أي طريقة؟

- « الحبُ مواجهة كبرى..

إبحارً ضد التيار..

صلبٌ وعذابٌ ودموعٌ ورحيلٌ بينَ الأقمارِ»

وقال أيضاً:

«إني لا أؤمـنُ في حـب لا يـضرب مثـل الإعصـار لا يكـسر كل الأسـوار لا يحمـلُ نزق الثـوارِ «

- الشوق يا ورد.. الشوق هو مَن يجعل القلب يصلب ويعذب ويتمنى لو أن الطرقات قصيرة..

ولا أعتقد بأن غير الحب يستطيع أن يكسر كل الأسوار عزيزتي ورد نيسان!

التف وجهه إلى جهته اليمنى ونظر لي بثبات محبب وعاود إبعاد عينيه إلى الأمام، ثم استطردَ يقول:

- فمثلاً أنا اشتاق إلى الأشخاص وهم بالقرب مني.. وأحياناً أخاف التعبير بشوقي البالغ قِمماً في قلبي وألا يكون المقابل يحمل نفس تلك القمم في قلبه..

أن يكون فارغاً من الشوق ويبقى لهيبي لي وحدي أنا لا يشاركني بإخمادهِ أحد!

أخاف أن يُقضى على الحب بهذه الطريقة الباردة التي تشبه في برودها

صقيعَ الشتاء.. « إنهُ الرحيل بين الأقمار «

الخوف من المجابهة يا ورد!

نظر لي.. و واصَل حديثه..

- لا أريد الشعور بالبرد بعد أن كانت عينيكِ دفئاً!

لا أستطيع أن أرد على كلماته.. لا أعرف لماذا إلى الآن لم أبح بحبي له.. أنا أعرف بأن عيناي تحكي كل شيء ولكن شفتي لا تنطقان بأي شيء أبداً.

إنهما معاقتان تماماً ومتصلبتان كالرصاص..

تساءلت!

ما هو الشيء الذي قد يكون أجمل من الحب بحد ذاته؟

أعتقد بأنني سأجد جواباً يرضيني في عقلي الباطن، فإنه يعرف كل شيء لا أعرفه أنا.. أنا متأكدة من أنه سيرسل لي جواباً بعد عدة لحظات قصيرة لأنه طارح وقرأ عن جميع السعادات والأنواع واجتاز الخيارات كلها.. إن أفضل ما قد نُخبئه عن أنفسنا و زعمنا أننا نسيناه فإن العقل اللاوعي يحتفظ به لمدة طويلة قد نكون لا ندرك طولها أو حجمها!

أنا الآن بعيدة جداً عن أيلول أشعر بهذا..

أحاول البحث عن سؤالي في مخيلتي!

أعتقد بأن هناك عدة خيارات كان قد أرسلها العقل الباطن وكان من أهمها:

الأجمل من الحب أن لا يكون هناك حب.. أي قبل الاعتراف به والخوض في وديانه والسهول المنحدرة والبحار المتفجرة.. أن يكون في المنتصف ما بينَ حبٍ وصداقة.. إنه المنتصف الجميل!

فإذا اجتمعت الصداقة والحب كان هناك ثمرٌ لذيذ الطعم مستساغ يُجنى في تلك العلاقة.. قطوفٌ لا يتذوقها إلا شخصان في تلك العلاقة المَنصَفَة.

مسكينٌ مَن يعتقد بأن الحب كل شيء.. ويستطيع أن يفعل كل شيء وأنهُ

قد يصنع المعجزات بمفرده!

بل العكس تماماً إن الحب لا يكفي إلا لاستنشاق الهواء وشرب الماء، وكلما يقع على عاتق الصداقة..

فهناك الصبر والاحترام.. وهناك التقبُل دون شروط وهناك حوار العقول واحتضان بعضها البعض..

لا يستطيع الحب أن يعيش دون تلك المقومات .. لا يمكن أن يستمر!

تسلل صوت أيلول إلى أفكاري..:

- وصلنا إلى القصر الرئاسي يا ورد نيسان..

- أين هو أنا لا أرى شيئاً!

- على بعد كيلومترات من هنا..

- تمزح.. كيلومترات؟

حسناً لماذا توقفنا إذاً؟

- سنكمل سيراً.. لا يسمح للسيارات أن تدخل إلى الداخل يا ورد نيسان!

كان المكان جميلاً جداً.. مليءٌ بالحدائق والأشجار وأيضاً البيوت الصغيرة التي كانت منتشرة بكل مكان تقريباً.

المكان هنا يصرخ بالجمال فأنا أحب تلك الأماكن كثيراً.

سألت أيلول:

- لماذا هذه البيوت هنا.. أليس من المفترض أن يكون هذا المكان رئاسي؟

- شُيد هذا القصر الضخم هنا.. وشيدت معه تلك المنازل.

- أين القصر.. ؟

- سنصل إليه بعد أن نتسلق هذه التلة الضخمة!

- تمزح غالباً.. كيف سأتسلق وأنا أنتعل كعباً..!

- لن تقعي، سأمسك يدكِ عزيزتي!

- ألن تفلتها عندما تشعر بأننا سنقع معاً؟

- لا أفلتكِ يا ورد.. لا أستطيع أن أفعلها.

ابتسمت.. وقلت:

- اتمنى ذلك.

ولكن لمَ شيد هذا القصر فوق التلة هذه؟ كان بإمكانهم أن يجعلوه مع مستوى سطح الأرض!؟

- يُقال.. بأن الرئيس السابق صدام حُسين كان يريد أن يكون قصره أعلى من آثار بابل لأنه يريد أن يرى جمال بابل من اطلالة قصره.. حيث أن القصر كما سترين الآن يتكون من أربعة طوابق.

- هل الاطلالة جميلة حقاً؟

- تتأكدين بأم عينيكِ عزيزتي عندما نهم بالصعود!

- حسناً، هيا لنصعد يا أيلول..

وعندما جئنا للصعود غرز الكعب في رمال تلك التلة ولم أستطع أن أكمل.. نظر لي وكادت ضحكاته تطرق باب قلبي..

- أعطني يدكِ لِئَلا تقعين هنا واتورط فيكِ أنا.

- تتورط إذاً.. أليس كذلك!

عاد ليبتسم..

- نعم.. إنكِ أجمل ما قد يتورط به المرء.. أنتِ مشكلة من النوع الجيد للقلب والعقل.

كنت مترددة وخائفة من أن يمسك يدي فيشعر بقلبي المسكين..

ولكنني أعطيته يدي فأخذها وجرني من خلفه.

بقيتُ أنظر إليه من الخلف ولم أرغب أن تنتهي تلك الدقائق في التسلق.

أردت أن أبقى وأطيل النظر في يديه من الخلف وهو يمسكني بقوة لكيلا

أقع!

اعتقد بأنهُ يشعر بي لأن يداي تتعرقان.. بل تتصببانِ عراقاً!

قال أيلول:

- ها قد وصلنا.. إنهُ شارع القصر.

أفلتتُ يدي من يده ووضعتها على قلبي وكان شهيقي وزفيري يتعاركان، وتسارعت نبضات قلبي فقد تعبت من الصعود ومن يده التي حطت على يدي بقوة!

قال أيلول:

- هل نستمر أم نجلس لاستراحة بضع دقائق؟

- لنستمر طبعاً فالوقت يداهمنا يا أيلول..

ولا تنسى ستغيب الشمس عن أعلى قمة في بابل.

- حسناً، أنتِ محقة!

مشينا معاً ولكن خطواتي بدأت تتسارع قبله لاكتشاف المكان..

نعم، وصلت إلى الاطلالة الجميلة.. لا بل كانت أكثر من جميلة، زاد حجم بؤبؤ عينيَّ لكثرة سعادتي!

هناك بالأسفل متاهةٌ كبيرة ويحيطها من كل جوانبها أشجار مليئة الأوراق لم تفقد رونقها بالرغم من الحر الشديد!

وكانت اطلالة القصر الخلفية أجمل بكثير..

إذ يحيط نهر الفرات جوانبه الأربعة وعلى ضفافه النخيل العراقي.

كان يمتلك جمالاً أبعد من نظري حتى.

لم يطرأ لفكري أن أحتفظ بصورهِ الجميلة.. كنت أستمتع باللحظة الراهنة فقط واعيشها بكل ما فيها من سعادة وانسجام.

حتى لاحظ أيلول انسجامي مع الرياح وتراقص الشجر ولكنه كان صامتاً

ينظر إلى سعادتي وهوَ يبتسم ولم يقاطعها بكلمة واحدة.

اخذتُ شهيقاً عميقاً لأنني شعرت بالهواء ينادي.. « تنفسي يا ورد.. تنفسي لِتحتفل رئتاكِ، أنتِ اليوم بعيدة عن الجميع، بعيدة عن الحياة وضجيجها الصاخب.. تستمعين إلى حفيفي و قلب أيلول فقط.

ماذا تريدين أكثر يا ورد.. انصتي فقط وتنفسي بعمق «.

قلت لأيلول:

- هلا ندخل ونرى جمال القصر من الداخل؟

- بكل سرور..

دخلنا إلى القصر وإذ بي أقف في وسط صالة عظيمة وكبيرة جداً.. فبعد أن مشينا لنهي هذه الصالة وصلنا إلى باب ضخم تستطيع شاحنة أن تدخل فيه... بعد أن اجتازت أقدامنا هذا الباب وجدنا أنفسنا في صالة أخرى أكبر وأجمل من أختها.

فقد كانت الرسومات تملأ المكان.

يا إلهي إنهُ مزخرف من كل جهاته..

نقوشٌ تمثل أشجار النخيل والنجوم والأشكالُ الهندسية الأكثر من رائعة

كانت الجدران مليئة بالرسومات التي تمثل الجنائن المعلقة ومسلة حمورابي وبوابة عشتار المدهشة!

إنَّ المكان يضجُ بالحضارة العراقية التي تمتد لآلاف السنين الماضية في جداريات ممتعة وجميلة.

حتى إن رفعت رأسك لتنظر إلى سقوف القصر سترى هناك جُزءاً لا يتجزأ من النقوش والزخرفات البابلية والآشورية العريقة!

إنهُ جميل..

- شكراً.. لقد ملأتني سعادة اليوم..

- لماذا تقولين شكراً يا وردتي؟

السعادة تليق بشفتيكِ ولا أنوي الإطاحة بهما إلى الحزن أبداً.. إنها استحقاقكِ العادل من هذا العالم.

- لن تطيح بي إذا بقيت يدك تشد يدي بهذه الطريقة!

قلتها..

نعم قلتها له، أخيراً استطعت أن أتذوق طعم الحب بشفتي.. استطعت أن أنطق الحب له..

- هل تريدين أن أبقي يدي باحتضان يديكِ؟

- أريد ألا تفلتها أبداً.. أريد أن تكون جزءاً مني وليس منك أنت!

إنهُ يبتسم.. لا بل عيناه تبتسم أيضاً، يُدني رأسه إلى الأرض ويبتسم من غير إرادة..

أ أعجبهُ قولي؟

لماذا هو سعيد بهذه الطريقة..؟

قال دون أي مقدمات ولا أحرف شهيق حتى:

- «لطالما أحببتكِ يا ورد نيسان.. لطالما رأيت الكواكب في عينيكِ تحتضنني.. أحببتك يا ورد نيسان.

لن يملأ شوارع قلبي إلاكِ و لن تمر فتاة أخرى من أحداقي سواكِ.. أنتِ الأبدُ يا ورد والباقون ساعات.

بقيت أنظر إليه بصمود وهو يتكلم.. كانت هذه المرة بصمود وابتسامة توحي بتقبلي الكثير لكلماته التي باتت تطرقني في كل مرة يقول بها شيئاً يُسعفُ قلبي من الهبوط!

قاطعت صمت كلماتنا وتحاور أعيننا وقلت:

- ما رأيك بأن ننزل إلى المتاهة؟

- يُقال بأنها مليئة بالجن.. ألا تخافين؟

- هل يبدو لك بأنني فتاة تخاف شيئاً؟

وإن كان هناك جن فلنسلم عليهم لا بأس فنحن ضيوف الرحمن، لن يؤذونا لا تقلق.. وإن جاءوا ليؤذوك سأتلو عليهم آيات من القرآن.. أنا هنا!

- تقولين لي بأنكِ ستحميني من الجن إذاً!

آه حسناً كم كنت خائفاً..

بسخرية قال.

- لا تخاف عزيزي فأنا هنا!

بتكبرٌ قُلت.

- حسناً لتنظري إلى هذه الصور!

دنا مني ليريني القليل من الصور.. إنها صورهِ وهو يجلس في المتاهة تلك!

قال:

- ذات يوم ذهبت وأصدقائي إليها وكان أحدهم يرتعب من الجن فأردت أن أشاركه مزحةً، وبينما كان يجلس على إحدى صخورها الكبيرة خرجت عليه وأنا اصرخ حتى ظن بأن جني قد تلبسني، ولم تبقى كلمة في معاجم العرب للإنقاذ إلا تلاها واستنجد بها.

لكنني كنت أضحك لشدة فزعه تلك!

- مجنون أنت؟

قطعت نسل الرجل يا أيلول!

قلت هذا وبدأ يضحك مجدداً.. بدأ يضحك!

- لا تقلقي، إنه بخير.

ولكن هل حقاً لا تخافين الجن يا ورد نيسان؟

ضحكت مستغربه من سؤاله!

- ممّا أخاف و ماذا أخاف أليس اللهُ بكافٍ عَبدهُ؟

أليس اللهُ معنا أينما كنا؟ ألم يقول ﷺ: (يا ابن ادم لو اجتمعت الانس والجن علي ان يضروك بشيء لن يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت الانس والجن على ان ينفعوك بشيء لن ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك رفعت الاقلام وجفت الصحف)

فَلِمَ أخاف؟

أ أخاف لأن الله بقربي.. أم أخاف لأنني قرأتُ قرآناً عجبا؟

- أنتِ محقة بالطبع يا ورد..

ولكن ما الذي يخيفكِ في الحياة إن لم يكن هناك شيء يخيفكِ كلما سألتكِ عنه.. لِمَ أنتِ قوية لهذهِ الدرجة وتعتقدين بأن لا شيء يستطيع بث الخوف في أرجاء قلبكِ ودرابين الذاكرة لديكِ؟

أجبت سؤاله بنفسي فقط.. نفسي فقط ولن يسمع شيء!

لا يا أيلول بل منذ أن أحببتك دخل الخوف قلبي.. عرف كيف يتسلل لي.. الحب والخوف خليلان لا يفترقان أبداً.

صرت أخاف أن تمسك يداك يداً غير يدي، وأن تتشبث عيناكَ بأخرى يا أيلول.

أخاف من أن يصيبك شيء..

أخاف من خسارتك لأنني أعرف أن خسارتك تعني خسارة جميع ما أحب، لأنك وبطريقة ما دخلت بتفاصيلي كلها وأدقها

ولأنني جازفت بكل شيء عندما اعترفت بك في أنحاء جسدي وفي عقلي بل وحياتي!

ذاك اليوم الذي لم اطردك فيه عندما عرضت نفسك حبيباً وصديقاً وقلباً لي و واكبتُ تحولك فيه إلى أعماقي كما تتحول الذرة الواحدة عند انقسامها إلى نصفين..

وكما تتضاءل الذرات تضاءلت أنت بداخلي!

- ما الذي يخيف ورد نيسان؟

- الخذلان.. لا شيء سوى الخذلان!

اختصرت جميع مشاعري بكلمة واحدة.. فأنا لا أعرف أن أبوح بجميع تلك المشاعر لأيلول دفعة واحدة.. لا أستطيع أن أفعلها مطلقاً فأنا اضعف من هذا!

هيا يا أيلول لنعود إلى المنزل لن نستطيع الذهاب إلى الجنائن المعلقة..

الشمس تغيبُ، هيا بنا.

- لا تحزني.. سنذهب يوماً ما إلى حيث يريد قلبك الذهاب دائماً.

فقط أود أن أسمع أسمي منكِ (أيلول) .. وسأفعل!

لا تذهبِ يا ورد.. حقاً لا أريدكِ أن تذهبِ.

ما أجمل كونكِ بصفي تجلسين.. أرى وجهكِ وأنتِ تضحكين.. تتكلمين وتسترسلينَ الكلمات شيئاً فشيئاً تطرقين باب قلبي و تتربعين!

لا أستطيع أن أودعكِ يا ورد نيسان فقوتي أضعف من هذا وعزمي أقل منه!

- سأراك غداً تحت شجرة الاكاسيا الصفراء..

سأنتظرك على المقعد الذي يدنوها.

- لن تنتظريني سآتي في الصباح الباكر قبل الجميع.. سأكون هناك بانتظار خطواتكِ نحوي.

- يسرني هذا بالطبع!

ونحن عائدان لنركب السيارة.. رن هاتفي الذي صمت لمدة طويلة!

عندما رأيت اسم المتصل رأيت الحقيقة!

قالت:

- أين أنتِ الآن عزيزتي ورد؟

- اهلاً بكِ يا عمتي.. أنا في جولة سياحية، كنت في القصر الرئاسي القديم اجلس على اطلالة نهر الفرات الجميلة!

- مَن اصطحبكِ إلى هناك يا عزيزتي ورد؟

- أحد الزملاء!

- مَن يكون.. ألم أسألكِ؟

- إنهُ أيلول..

- لم تسمعي نصيحتي.. لم تنصتِ مجدداً يا ورد..

ألم أقل لكِ ستخسرين.. اقسمُ بأنني خائفةٌ على قلبكِ الجميل كيلا يتألم فنحن في عالمٍ يجب ألا نثق بأحد فيه، والمتوقع أن يخذلنا الجميع وتتصاعد زفراتنا إلى فراغات الحياة!

لمَ لا تنصتين جيداً يا ورد؟

- أنا اسفة ولكنني لا أستطيع أن أتكلم الآن سأعاود الاتصال لاحقاً..

أعدكِ بأنني عندما أعود سنتكلم في هذا الشأن.. إلى اللقاء!

إن عمتي أعادتني إلى الواقع الذي فرض عليَّ، وكأنني سُرقتُ من جانب أيلول وعدت إلى حيثُ قالت عمتي

« يجب أن نتوقع من الجميع أن يخذلنا «

انتبه أيلول لتبادل ملامحي...!

- مَن المتصل؟

هل هناك شيء يا ورد نيسان.. ما بكِ؟

- لا شيء.. فقط صديقاتي ازعجنني ويردنَّ مني العودة.. لـ نعود بسرعة أرجوك.

- ما شأنهنَّ عزيزتي!

أنا متأكد بأن هناك شيء آخر قد أصاب قلبكِ يا ورد..

- لا شيء، فقط أنا متعبة!

- عائدون يا عزيزتي!

أ أنتٌ خائفة من شيء ما؟

- أخبرتك مسبقاً بأنني لا أخاف من شيء.. ولكنني انزعجت من بعض الأشياء وليس لك علاقة بشيء صغير منهنَّ.

لم أتجرأ أن أخبر أيلول بما سمعته من عمتي و لماذا أنا حزينة وخائفة حقاً.. فاستحسنتُ أن أرمي اللوم على صديقاتي!

وصلنا إلى منزل زهراء بعد نزول الشمس عن عرش السماء وبصوت تكبيرات الجوامع..

الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله..

نزلت من السيارة.. وقد كنت صامتة طوال الطريق لم أتفوه بشيء.. قالت:

- مع السلامة يا أيلول.. أراك غداً تحت الشجرة.. انتظرني!

وذهبت قبل أن يتكلم أو يرد..

ولكنه أوقفني..

- ورد..!

التفت إليه وإذ به يأخذ يدي ويضعها على صدره في موضع قلبه وقد كانت أفكارنا متشابهة لدرجة تخميني بما يفصح عنه..:

- أتسمعينَ؟

إنها تتسارعُ لأجلِ أن تبقي سعيدة دائماً.. لأجلكِ أنتِ يا ورد نيسان.

ألم تفهمي بعدُ أم أنكِ تؤجلين؟

تريني من بعيد احترق.. و تحترقين ولكنكِ تؤجلين!

لماذا تخافين يا ورد.. أنا اعرف بأنكِ خائفة!

أنا بجانبكِ دائماً.. لن أتخلى عنكِ ما دمتُ أتنفس الحياة!

نظرت إليه وقلت في وقع الأذان بمسمعي:

« اللهم إني أستودعك قلبي وأيلول «

كانت تلك المرة الأولى التي أخبر الله بها عن أيلول.. بالتأكيد إنه يعرف ولكنني لم أخبره أنا.. كانت تلك المرة الأولى حقاً..

أعرف بأنك تسمع يا الله!

- قولي شيئاً يا ورد نيسان واتركي الربيع يتأرجح بقلبي!

- أنا أحبك يا أيلول ولكـ..

- ولكن ماذا يا ورد؟

- ولكن طريقنا وعرة يا أيلول.. بل وعرة جداً ولا أعرف متى سنصل إلى بر الأمان، مازال الوقت مبكراً لنفكر بالأمان الخالص!

فمع الأسف نحن نعيش في مجتمع يبحث عن الحب ويحاربه في الوقت عينه..

هناك العادات والتقاليد والإرث العائلي أو القيم العائلية التي لا تتغير مهما تغير الوقت!

وأنا كوني ورد.. سأرمى بستين حجر لأنني فتاة يجب ألا تمارس الحب حتى في قلبها وليس علناً.. يجب أن اكون حذرة جداً!

- ورد!

ألا ترين كم أن عيني متعلقة بعينكِ تلك..؟

هل تظنين احتراقي هذا لهواً، أما زلتي إلى الآن لا تعرفين أيلول؟

اعدكِ لن أفلت هاتينِ اليدين سأحبكِ إلى أن يقطع نفسٌ لي من الله.

لا تخَاف ...

- لا أخاف!

ولكن لا أريد أن أترك نقاط الضعف في الأرجاء!

- حسناً ورد نيسان لا تخاف شيئاً.. أنا أعرف.

ولكن أ تقلقين من وعرة الطرقات؟

- أنا لا أقلق من الصعوبات يا أيلول ولكن أقلق من ألا نصل بعد العناء.. ألا نستريح بعد الوصول..

ومن التلكؤ إن تعبنا.

أقلق من عدم استمرارنا بمواصلة القتال ومن استسلامنا في بداية الحرب!

اقلق من تصلب أقدامنا بسبب الجروح!

أنا قلقة.. ولكنني أثق بوعودك التي تقطعها.. لست خائفة لأن حبك وقع بقلبي رغماً عن كل شيء

وأنا سعيدة لأنني وقعت بك من حيث لا أدري.

ولكني قلقة على قلبينا من الألم.

- إن لم يكن هناك شارعٌ يؤدي بنا إلى بعض ويجمعنا.. فسأُعمر هذا الشارع قطعةً قطعة من الأحجار القوية

وسأصل في نهاية الطريق لأمسك يدك وأملأ فراغات أصابعكِ بأصابعي..

أعدكِ بهذا يا ورد نيسان.

عام هجري جديد بدأ اليوم وقد صادف اليوم التاسع من الشهر الثامن الميلادي.

وبذلك أرَدنَّ صديقاتي أن يذهبنَّ لزيارة المراقد الدينية في مدينة كربلاء فاستحببت الذهاب معهن لأرى جمال المكان وهيبة مراقد اصحاب رسول الله ﷺ وآل بيته.

المكان كبيراً جداً ولكنني أعرفه فهذه ليست زيارتي الأولى له، فقد أتيت مع صديقاتي مراتٍ عديدة.

لكن هذه المرة كانت مختلفة جذرياً لأن كربلاء من البداية وحتى آخر نقطة فيها تعج بالناس الذين الزائرين لهذه المراقد الشريفة!

لكثرتهم لم تجد أقدمنا مكاناً لِ تقف فيه.

دخلنا أحد المراقد الطاهرة ووقفت فصليت ركعتين ورفعت يدي نحو السماء مستنجدة بالإله العظيم:

باسمك الأعظم «الله»، أعرف بأنك تسمع دعائي بكل مرة آتيك بها وبأي مقعدٍ اجلس به..

اسألك اللهم الجليل منزل الغيث وموقد النار.. اللهم أستودعك قلبي وعقلي ومَا فيهن وَمن فيهن..

إنك تعرف ما لا أعرف وتسمع ما لا أسمع وترى ما لا أرى وإنك تعرف ما تكنُ بهِ الصدور وما كَنَّ بصدري (أيلول).

ربنا لا تؤدب أخطائي به فإنك علقت قلبي به ولا تُسألُ عمَّا تفعل يا رب!

رأتني امرأة عجوز وقالت متحيرة:

- لمَ تبكين دعائكِ يا ابنتي؟

إنَّه سيستجيب يا صغيرتي!

صلِّ الآن واطيلِ السجود سيمنحكِ الله ما تريدين.

اتجهت إلى القبلة مبتعدة عن القبر وصليت حباً لله وشكراً له على كل شيء، وفي هذه الأثناء جاءني ثلاث فتيات لا يتجاوزنَّ من العمر ما اتجاوزه وقلنَّ لي وهنَّ مبتسمات وعلى وجوههنَّ شيء من الأمل:

- تبدين صادقة في دعائكِ ويبدو عليكِ الحب في الطلب..

هلا تدعين لنا؟

نحن طالبات بكالوريا ونريد أحلامنا أيتها الصادقة!

- ليجعل الله من النصيب أجمله من الأحلام..

ألا والله إنكنّ جئتن فتاة عاشت أحلامها بروية في تحقيقها فلا يوجد شيء في هذا العالم البائد أجمل من تحقيق الأحلام بشرط ألا تكون أحلامنا هي الغاية التي سنقف بها وإنما بِجعلها الوسيلة الكبرى لإرضاء الله (جل جلاله).

-شكراً لكِ أيتها الصادقة، ليعطيك الله مرامكِ حالما تخرجين من هنا.

بعد أن أنهيت صلاتي ودعائي وإضفاء قلبي إلى الله واختلائي به رغم الحشود المؤلفة.

خرجت من البوابة المخصصة لخروج النساء وإذ بي أنظر إلى تلك الجموع الغفيرة.. فرأيت بينها صديق ينظر لي من بعيد وهو يبتسم لأن عيني وقعت إليه بالرغم من العامة المزدحمة..

جاء إليَّ يدنو..

- أ أكملت عزيزتي؟

لم أسأله كيف عرفت بأنني هنا.. أو لماذا أنت هنا، فقط ابديت سعادتي التي كان من المستحيل إخفاؤها عنه واسترسلتُ:

- نعم عزيزي، لقد اكملت!

- حسناً.. هذا جميل..

تعالي إذاً.. سنذهب.

و جرني من يدي وأخذني خلفه بالزحام..

- إلى أين يا أيلول.. دعني أخبر صديقاتي أولاً..

- ندى تعرف أنكِ معي يا ورد نيسان.. ولن تضيعِ!

- ومن قال بأنني سَأضيع.. أنا أعرف هذا المكان جيداً !

- ولكنه مزدحم.. لئلا تضيعين!

انصتي لي مرة واحدة على الأقل يا ورد.. مرة واحدة!

- حسناً، سأُنصت اليوم لك.. أعدك يا أيلول.

مد يده لي مفترشة وقال:

تعالي إذاً.

أخذني إلى ساحة واسعة جداً ولكنها ضنكاً جداً أمامنا كان مرقد عم رسول الله ﷺ.

أردت أن أمشي إليه ولكن أيلول امسك يدي وشدها بقوة .. وقال:

- توقفي لن ندخل.. المكان مزدحم!

بقيت امسك يده و غصت في أعماقي حتى لشدة هدوئي سمعت الدم وهو يمشي في جسدي.

إنني لم أعد أسمع غير أفكاري من بين هؤلاء الحشود المؤلفة.

كان أيلول يمسكني بقوة جميلة وكأنه يحميني من الطيران إلى عالم ما أو كوكب آخر!

كانت يده تحتضن قلبي وليس يدي فقط.

أنا أعرف جيداً بأنني عندما امسكت يدك كنت سأدخل في دروب شائكة ولكنني لست خائفة من دروب الحزن هذه.

لف أيلول ذراعي نحو ذراعه حتى شعرت بأنه سيكسر أصابعي من قوة التشابك..

- هل ترين هذهِ الحشود.. هل تحسينهُم؟

فإني لا أرى إلا أنتِ ولا أشعر إلا بيدكِ.

كل البشر محجوب بهدوئكِ.. بوجودكِ منبوذ وغير مرغوب فيه.

لا تقلقي يا عزيزتي سنحارب المجتمع والعادات والتقاليد وسنصل معاً إلى

المحطة التي نريدها!

- مَن أخبرك بأنني أفكر بقلقي؟

- تتشابكين بيدي وتنسين بأن أفكارنا متشابكة أكثر من يدينا يا ورد نيسان!

- ما رأيك أن تعود بي؟

- إلى أين؟

- إلى حيثُ لم ألتقيك من قبل!

- أندمتِ؟

- لألتقيكَ مُجدداً.. وأحبكَ من جديد.

١٠/١٠/٢٠٢٠

تحت ظل إحدى الشجيرات المزدحمة الأوراق.

انتظرت أيلول أن يأتي تحت شجرة الحب تلك، والتي كانت تزدحم بأوراقها رغم تساقط الكثير منها واحتفاء الأرض بتلك الأوراق المتساقطة لأنه زينها وزادها رونقاً وجمالاً.

ولكن كعادتي.. لم أكن أنتظر أيلول كثيراً فلم يلبث إلا دقائق قليلة حتى جاء.

وأما عن مجيئه هذه المرة فلم يكن ككل مرة.. جاء غاضباً وحزيناً حتى يكاد وجهه يتعثر بحاجبيه المعقوفان.

ظل وجهه إلى الأسفل وعيناه تلامسان الأوراق المتدافعة على الرصيف.

سألته عدة مرات ما بك..

ولكنه لم يجيب.. أم لم يسمعني، لا أعرف هذا!

أكان يبحر في أعماق انعقاد ألمه أم أنه يحاول تناسي الألم والبحث عن أي شيء يسعفه..

في الواقع أيهما كالضيرِ نفسه « فَـ أيلول يتألم « ولا أستطيع كبح ألمه الذي يشعر به!

سألتهُ مرات عديدة عن سبب حزنه فلم يجيب حتى لم ينظر لي..!

وعندما يئست من أن يأتي صوته قلت له:

- لا تحزن.. سيمضي.. أنا معك دائماً ولن أفلت يدك.

ها هوَ الآن يتنهد.. ينطق بحروف لا شك في ذلك!

- لا اعتقد بأنها ستمضي.. صدقيني..!

- أستطيع أن أسمع ضجيج قلبك وانفلات عينيك إلى الأرض دون أن تكون لك القدرة على حملها إلى عيني.

وإنني أشعر بارتجاف يديك فلا تحاول إخفاء ما تحتسيه من دموع..

أخبرني يا أيلول!

- ستحرق رياحي ربيع قلبكِ.

- لن يحدث.. ستمنعها أنت!

- لطالما أحببتكِ يا ورد نيسان..

اعرفي يا ورد بأن قلبينا مترادفان وإن حدث لقلبكِ وخزٌ صغير أشعر به أنا وأتألم عني وعنكِ يا وردتي.

أريدكِ أن تصدقيني.. وتصدقي حبي دائماً فأنتِ أجمل شيء حدث لحياتي وأضاف لأيامي ألواناً كألوان الربيع!

- إن كنت كذلك..

فلِمَ لا تقول لي ما الذي يحزنك؟

- لا عليكِ.. فـ رؤيتكِ جعلت قلبي هادئاً بعد أن كنت في غاية تشتتي..
أنا أهرب إليكِ يا ورد من العالم..
كنتِ دائماً تكفيني وتجعلين مني إنساناً كاملاً..
كنتِ دائماً مسكناً وسكونا من الأتراح والألم!
لم أسأله مرة أخرى ما به.. لم أريد أن افتح صنابير الألم بقلبه لعلها هدأت بالفعل..
ولكن صنابير التفكير فُتحت في عقلي..
- ما الذي قصدهُ أيلول بـ « ستحرق رياحي ربيع قلبكِ «؟
أ لأنه حزين للغاية قال هذا أم قصد شيئاً لم أفقه أنا..
سأعرف غداً أو بعد غد.. ولكنني سأعرف حتماً ما الذي قصده أيلول بهذه العبارة الغريبة!

كل الأشياء التي كانت تقف بيننا كالجبال أود تحملها بشدة!
عائلة أيلول لا تُحبذا تلك الزيجات التي تأتي بعد الحب، إنها عائلة تقليدية بحتة..
قالت له والدته في ليلة غاب ضوء القمر عن مُحياها..
« متى ستتزوج يا أيلول «؟
لا أعرف وقتها لمَ أيلول لمَ لمْ يبدي صوته على الأطلاق..
كان هذا يخيفني أحياناً وأشعر بانقباض في الصدر.. ألم يكن يصرخ سابقاً.. ويقول: « بلى أنا أحبكِ يا ورد «!

إذاً لماذا هو متردد وخائف بهذهِ الطريقة؟

لم أستطيع أن أخبأ قلقي بداخلي ورحت أسأله..

أنا أراه الآن أمامي يقف مع صديقه عمر واعتقد أنهما يتناقشان في مادة الامتحان!

نظر لي وكأنه عرف بأنني أريد التكلم معه واستسمح عذراً من عمر ودنا مني يخطو ويبتسم:

- كيف حالكِ يا أحلى امرأةٍ بين نساء الكون!

وهوَ يغمز لي بعينيهِ اللتان تجعلان من قلبي مكان ياسمين!

- أنا بخير.. ويبدو أنكَ تعلمت المغازلة بكلمة الشعر أيضاً..

وأنا ابتسم تلك الابتسامة الطفيفة!

- وما الضير أن أتعلم لخطف قلب تلك الفتاة الجميلة!

- ولكنك بالفعل اختطفته يا أيلول، ألم يكفيك هذا اطلاقاً!

- أتمنى أن تُحبيني مثلما أحبكِ لِتعلمي أنهُ لا يكفي العاشق اختطاف القلوب، إنهُ يريد التملك!

حسناً.. نظرت إليه..

يبدو بأنه لا يعرف كم أنهُ تملكني بطريقة جميلة وحتى أقل تلك الشؤون الصغيرة له تلفتني!

- أهل يا ترى الأشخاص الذين يحبون بهذه الطريقة من التملك يستسيغون ألا يفصحون عنها لآبائهم؟

هل هذا عادي للرجال؟

- تمزحين غالباً!

- لا، أنا لا أمزح.

لمَ لمْ تبوح بي عندما سألتك والدتك؟

هل تخاف يا أيلول؟

- نعم، أخاف!

- مِمَ تتخاف...؟

- من أن أخسركِ.. من أن لا أراكِ مجدداً.. ومن القدر.

إن أخبرتها يا ورد نيسان لن تدعني وشأني وتلح على تزويجي بابنة أخيها..

تعرفين عائلتي يا ورد!

قال هذا.. ثم واصلَ يقول:

- إن كنت سأخبر أحداً فسيكون أبي لأنني أعرفه جيداً لن يريد قتلي وبث الحزن فيَّ!

قلت بسخرية..

- وهل والدتكِ تريد الحزن لك عزيزي!

- إنها كذلك.. أمي لا تحبني منذ أن كنت صغيراً يا وردَ نيسان.. كانت تضربني وتفضل سائر أخوتي عليّ!

لم أعرف إلى الآن ما الذي لم تحبه بطفل صغير.. وإلى أن أصبح رجلاً!

كنتُ أحاول التقرب منها دائماً ولكنها في كل مرة تطردني بطريقة مؤلمة.

ولهذا لا أستطيع أن أقول مشاعري لها.. لا أستطيع أن أشاركها قلبي فهي البعيدة دائماً!

إنها تلح على تزويجي من ابنة أخيها وتريد مني الذهاب والعيش ببغداد معها بدلاً من أن تأتي هي.. إنها بكل الطرق تريد الخلاص مني.. لكي لا تراني عيناها أبداً!

كيف بي أن أخبرها بأنني أحببت فتاة..

سوف تلعنني إلى الأبد يا ورد..!

إنها كذلك!

- هل يطرأ على الأم ألا تحب طفلها؟

- لا، أو ربما نعم..

ولكن أمي هكذا.. إنها يتمت قلبي وهي على قيد الحياة وأراها تمشي أمامي وبالقرب من الجميع ولكنها تفرط بي !

صدقيني..

لا يستطيع المرء أن يتعايش مع فكرة أن المرأة التي انجبته لا تحبه.. أو ترغب به ولداً!

إنها مؤلمة وضلت تؤلمني طوال تلك السنوات التي أمضيتها معها وأنا بأنني منبوذ دائماً..

وأنا أحببت ورد نيسان لأنها اعطتني كل شيء لم تعطيه لي أمي.

ولم تكن تلك الصديقة والحبيبة فقط بل كانت الأم أيضاً..

عندما كنا صغاراً نعتقد بأن والدينا لا يحبونا وأنهم يكرهوا عند ما يضربونا أو يصرخون بنا!

ولكن أن يكبر الاعتقاد هذا معنا فإنه من أشد المواقف ألماً..

ولا أعتقد بأن هناك شيئاً في الدنيا سيعوض غياب الأم وحبها في حياة الطفل أو الرجل.. لا شيء ممكن أن ينسيه مدى نبذها له من بين الآخرين.

عندما تغيب الأم من حياة طفلها.. تغيب عن حياة الطفل شمسه إلى الأبد ولاسيما عندما تكون على قيد الحياة.

أنا أعرف الآن أن أيلول يحترق من الداخل رغم ثبات قدميه وهوَ يتكلم.. إن قلبه كرة ملتهبة تتدحرج بجسده وتنثر شرارتها على كبده!

لا أعرف كيف سأضمد هذا الجرح الذي نكشت به.. كيف سيمضي!

أمسكت يديه التي دائماً ما حطت على يدي في كل شيء كالفراشة ومنحتني هدوءً..

تمنيتُ لو أنني أحط حمامةً هذه المرة لأمنحهُ السكون.. احتضنتها بيدي بكامل ما أُتيت من قوة وأخبرتهُ بأنني أحبه فقط!

لم يكن للمواساة دربٌ هنا.. لم تجد الطمأنينة مكان للجلوس فيه!

هل أخبره بأنهُ لا بأس.. وسيمضي؟

حسناً ولكن ما الذي سيمضي.. كيف يمضي.. وما هو عدم البأس في نبذ الوالدة لأبنها؟

عدت إلى السكن الجامعي وكنت مليئة بالحطام حتى إن احجارَ رُحَيّ تكاد أن تنكسر لشدة ما ضغطت عليهم واطبقت فكي العلوي على السفلي وكأنني انتقم لشيء ما!

لم أستطع تجاوز عيني أيلول عندما كان يتألم.. ويتكلم عن والدته.

لم أستطع تجاوز ارتجاف صوته.. فأنا أحبه للدرجة التي لو تألم اصبع يده تألمت عنه أنا!

لم أستطيع أن أنجز شيئاً طيلة اليوم ولم أتكلم معه أيضاً حتى أنني أهملت دروس اليوم!

أثقلني الحمل كثيراً ولا أجد شيئاً غير الكتابة يسعف عقلي..

فكتبت كلماتٍ متناثرة حاولت أن أجمع بها شتاتِ وتفكيري.. و ونشرتها:

- صراعاتنا قد أقبلت نائحة، حائرة تشكو لنا عجزها..

النوم من أعيننا يطفو بعيداً كأنما ضاع في بحرِ المنى..

لم ألبث كثيراً فوجدتُ أيلول قد أرسل لي رسالة يقول فيها:

- لِمَ ورد نيسان خائفة.. لمَ متوترة هكذا؟

- لا شيء يا أيلول.. فقط كلمات حاولت جمعها ونثرها من عقلي!

- تقولين بأنكِ تنثرين الكلمات هكذا.. ولكن لمَ لا تنثرين كلمات الحب عليَّ مثلاً وقد كنتِ من قبلُ تكتبينها كثيراً.. كان من المفترض أن أكون إلهاماً لكِ..

قال أيلول مازحاً ليزيل الحزن عن قلبي!

ولكنني أخبرته!

- لم أستطيع البوح بك لأوراقي..

فعندما اجيءُ للكتابة أريد بهذا تخفيف عبءٍ قد أطاح بقلبي ونثر الكلمات التي تتكون في رأسي على الورق ولأن جلوسُها الدائم في رأسي قد يسبب لي الأرق أحياناً فأتجه إلى قولها على الورق.

وعندما يقرأها أحد فإنها قد أدت دورها وسكنت عواصفي شيئا بسيطاً..

نقلت إلى شخص لا يعرفني ولكنه يعرف كلماتٍ سوقها قلمي لِيُرى حزناً من قلبي!

وأنا يا أيلول أريد أن احتفظ بك لِنفسي و لِعقلي.

لا أريد أن أكتبك على الأوراق فأشعر بخيانتي لك مع الورق والقلم.

لا أريد لِرأسي أن يخلو منك، وإن خلا سأُعاودُ البقاء في أرق!

لا أريد أن أكتبك وإن كان حباً لك.. لأن إفراغ شيئاً من حبي يعني قدمت على رميك بعيداً عني.

لا أستطيع أن اجعلك في أسطرٍ يتهافت إليها العامة لقراءتها..!

تكوين منك سطراً واحداً صعب علي فإنني أجد أكثر السطور مهترئة ولا تستطيع حملك أو فهمك.

الفكرة كبيرة جداً ولا يمكن للكلمات وصفها.. لا يمكن أن تضمك الكلمات فوجودك ثقيل على حروفها العادية!

أعمق من أن أبوح بك وأحتفي ببوحك مع أقراني.
كيف يمكن للورق أن يكون قبراً لك فَمعصمي لا يجرؤ على وضع النهايات..
لا يجرؤ قلمي أن ينهي سطراً كتبت عليه بنقطة!
أ تنتهي انت يا ايلول؟
كان هناك دائماً قول أحبه لـ جاري تشابمان يقول..(احرص على أن يكون خزان الحب ممتلئ دائماً)
فـ هل أكتبك وأفرغ خزان حُبي؟
قال أيلول:
- عديني يا ورد بأنكِ لن تحبي أحد كما أحببتني.. أحبيني فقط هكذا ولا تشركي معي أحد!
- لن يدخل قلبي موضع قدم لشخص لن يكون أنت لأن خانة العشق ستبقى لك إلى الأبد.

تقول دوروثي تِينوف:
(إن متوسط عمر الهوس الرومانسي عامان، فأما إذا كان حباً من النوع المتجدد فربما يستمر لمدة أطول بقليل، وفي النهاية نهبط من هذا الأفق العالي لتحط أرجلنا على الأرض مرة أخرى)
أي عندما نكتشِف بأن الطرف الآخر ليس بِمثالي وأنه يمتلك صفات وعيوب خاصة أيضاً هنا يبدأ الحب الحقيقي!
وكما قال دوستويفسكي عن الحب:
(أن لهفة البدايات ليس حُب، لا يحب الإنسان في أسبوع أو شهر أو

سنة.. فلا يمكنك أن تحب البحر وأنت تقف على الشاطئ..)

وواصل يقول..: (يبدأ الحب عندما ينتهي الحماس) !

فلا أعرف إن كان هذا حماساً أو هوساً أو حباً متجدداً ولكن جُل الذي أعرفه بأن السعادة ليست قدراً وإنما اختيار.. أ

وأنا اخترت أن أكون سعيدة معه كيفما كان يمتلك من عيوب و أن أكون سعيدة بتقبله دائماً!

لقد كان ينظر إلى عيني بطريقة جميلة يبهرنا بها في كل مرة.. حتى أنني في بعض المرات لا أستطيع ممارسة النظر بعينيه أكثر.

كانت تسقط عيني عنونة من مشابك عينيه..

أخبرته ذات مرة:

- لا تنظر لي هكذا يا أيلول..

- لماذا؟

قلت بخجل واضح..

- لا شيء ولكنني أتوتر!

- هناك أشياء كثيرة في وجهكِ يا ورد نيسان ولا أتمكن من شرحها وحتى إن فعلت فلن أستطيع قول إلا واحد بالمئة منها.

كل شيء اقوله لكِ هو واحدٌ بالمئة من الحب يا ورد!

- هل واحد بالمئة من الحب؟

- هو كذلك..

- أين التسع وتسعون إذاً؟

- في وجهكِ.. سأقولها عندما أعرف كيف ستقال لكِ!

- ولكن الواحد بالمئة هذا كثير، وإني أرى أنك تظلمه.. لنعطيه خمسون بالمئة!

- لا نستطيع يا ورد نيسان..

كل شيء فيكِ يستحق التسع وتسعون ولكنني أضعف من أن أشرح لكِ كل هذا..

وأنا اسعى جاهداً ولكن لا يمكن أن يخرج مني إلا واحد بالمئة من حبي!

- ولكنك في نهاية المطاف تحبني.

- أنا أحبكِ من بداية ذاك المطاف يا وردتي.

ولكن أتظنين بأنني أحبكِ لأنني أقول «أحبكِ» !

مشاعرنا يا ورد بحد ذاتها ليست مشاعر الكره أو الحب.. إنما مشاعرنا الحقيقية هي التي تتماشى طبقاً لظروف وقائعنا وقراراتنا..

و وقائعي هي أنتِ وإحدى أجمل القرارات التي أدت بمشاعري هو قرار اختيارك يا ورد نيسان!

- لم أحب أحد من قبل كما أحببتكَ ولن أحب يا أيلول!

لطالما تمنيت أن أتزوج بشخصٍ يشبه أبي في كل شيء.. وعلى وجه الخصوص أن يشبهه في حبه لي!

في خوفه المعتاد عليَّ، وفي تفهمه لأي شيء أُقدم على فعله حتى وإن كان غاضباً مني بشدة فإنه سيبقى يغدق علي حباً وإلى الأبد.

عندما حظيت بأيلول كان يشبه أبي فصار أميراً لقلبي!

كان يقول:

- سوف أحبكِ كما يحبكِ عمي عبد العزيز ولكنني سأبقى أغار منه دائماً لأنني أعرف بأنكِ لن تحبيني مثلما تحبينه يا ورد!

ولكن لا بأس غيرتي.. فإنه جعلكِ ورد وجعلني عاشقاً لِ ورد.

أيلول محق جداً لا يمكن لأحدٍ أن يكون في قلب الفتاة أعظم من والدها منزلة..

لا يمكن أن يكون المرء طماعاً بهذا أبداً.

ووقوعي بحب أبي من المفترض أن يقع بقلب أي فتاة تمتلك والداً كوالدي، ولكن كان وقوعي بك هو أشبه بوقوع طائر بحب سمكة.

لن يستطيعا أن يجتمعا إلا في أماكن الحب كأغصان الأشجار وعزف أوجاع حبيبات الريح..

أو في سماءٍ يعكسها بحرٌ لجي يكاد من ظلمتهِ يعثر طائر الحب ويقطع الهواء عن السمكة!

وفي كِلا الحالتين يضحيان فيما يستطيعان للوصولِ لبعضهما!

إياك أن تهدأ ريحُك يا أيلول وتضعني في مكانٍ آخر..

مكان لا يعرفني فيه أحد ولا أعرف أحداً فيه.

إياك أن تجعلني محط أقدام في عوالم لم اعهدها ولم أرَ وجوه البشر فيها!

إياك أن تسمح لرياحٍ أخرى غير رياح أيلول أن تنتشلني من تربتي فيموت وردي وتُكسر أغصاني..

أترى يفيدُ الزهر بعدَ رحيلهِ

حزن الربيع ولوعة الأغصانِ؟

معك لنتُ إلى أطايب الحب.. واكتشفته وعشته قطعة مغطاة بالأمل لأنك احطتنَي مثل السماء و ملأتني كما تملأ الجُلَنار أغصان الرمان.

لم أشعر يوماً بأن حبك كان خطأً اقترفته أو بأنني ندمت يوماً لأنني أحببتك.

كعادتي لم يعرف الندم الطريق للسقوط في قلبي وتحريض (الـ لو) في لساني أو حتى فكري.

وذلك لأنني لم أكن صنيعة الحظ نفسه، ولكنني صنعت حظي بنفسي.

جميع قراراتي واختياراتي كان حظي لأني اخترتك..(كنت حظي) يا أيلول!

عندما أخترت حبك هذا يعني قررت أن أواجه مجتمعاً وقرارات عائلية

بنفسي وإن لم احظى بك سأُنفى إلى بلاد لا أملك بها صوتك حتى يا أيلول.
أحببتك ودمت في مأمن بمشاعري.. أو هكذا اعتقدتُ!

٢٨/١٠/٢٠٢٠ م

المصادف يوم من الأيام.

احزم حقائبي الآن لأعود إلى مسقط رأسي مدينتي الحبيبة.

انتهى هذا العام الدراسي وخضت آخر امتحانات في مرحلتي هذه..

سأعود إلى عائلتي وبيتي فقد اشتقت كثيراً إليهم..

اشتقت إلى أخي عندما يأخذ أشيائي كـ كتبي وجهازي اللوحي وأحياناً مساحيق التجميل خاصتي ويركض بها أنحاء المنزل إلى أن يتعبني ومن ثم يعيدها عندما يرى بأنني سئمت.

كنت أعرف بأن هذه طريقته الوحيدة لجعلي أضحك وأغضب في الوقت ذاته!

اشتقت لصوت أبي وهو يوقظني صباحاً..(هيا يا ورد حل الصباح استيقظي)!

كانت تزعجني ولكنني الآن اعرف قيمتها عندما صار هذا المنبه اللعين الذي لا يمتلك أي مقومات العطف ولا يعرف سوى الصراخ في أذني...

إنه يوقظني باستمرارٍ كئيب!

سأعود إلى عائلتي الكبيرة واترك تلك الجدران المزعجة التي لا تعرف أن تتحدث إلا بالامتحانات والتقارير!

كما لم يكن من السهل أن أفارق عائلتي.. فاليوم صار من الصعب أيضاً أن أُفارق أيلول.

لـن يكـون مـن السهـل أن ابتعـد، وأن أراه فقـط في شاشـة الهاتـف المزيفـة والخاليـة مـن الحـب الـتي تتيـح لي نظـرات أيلـول!

عندما عزمت على السفر قال أيلول قبل وداعي ببضع ساعات:

- لا تتواعدِ مع أحد اليوم.. أرجوكِ أريد أن أراكِ يا ورد نيسان!

ولكنـني كنـت سـأذهب إلى مـرآب السـيارات فـور خـروجي مـن الامتحـان عـلى أيـة حـال فـلا يمكننـا الذهـاب معـاً هـذه المـرة!

- لا أستطيع يا أيلول..

سيارتي ستخرج بعد ساعتين..

- حسناً لا بأس، دعيني أوصلكِ على الأقل!

- بكل سرور..

أقَلني أيلـول إلى مـرآب السـيارات، وكنـت صامتـة طـوال الطريـق و وأمسـك بيـده. حـتى أنـني أعقـتُ قيادتـه!

لم أتفـوه بكلمـة.. وكان أيلـول يحـاول أن يبـدد صمـتي بأي شيء أو يثـير انتبـاهي حـتى ولـو بحركـة!

ولكنـني كنـت أشـبه بـبركان لم ينفجـر بعـد ولكـن كل الـذين مـن حـولي يشـعرون بسـخونته وانفجاراتـه الداخلية!

نظرت إلى عينيه، أمسك يدي بقوة وقال:

- أرجوكِ لا تبكِ يا ورد نيسان.. لن يطول ابتعادنا أعدكِ بهذا!

لم أبـكِ حينهـا ولكـن هنـاك شيء مـا يخـبرني مـن أنهـا المـرة الأخـيرة الـتي ستمسـك يـدي بهـا بهـذه القـوة..

شيءٌ مـا يجـبرني أن أنظـر بعينيـك بهـذه القـوة والثبـات بـدون أن يجـبرني أحـد رمشـاي عـلى الوميـض لجـزءٍ مـن الثانيـة!

قاطع صمت الحزن صوت أيلول:

- نحنُ لا نفترق.. نحنُ نبتعد فقط!

طالما هكذا.. طالما أننا لا نفترق فلمَ قلبي يرتجف هكذا لمَ أشعر بالفراق؟

أعرف جيداً بأنه من غير المفترض أن أتجاهل احساساً مؤلماً.. ولكن البعد يفرض هذا..

إن الله يحمي قلبي دائماً، حتى وإن كانت الحماية على وجهٍ من وجوه الحزن.

أخذتُ ابعد يده عن يدي وكأنني أبعدها عن أسلاكٍ شائكة.. رويداً.. رويداً وأنا أتساءل..

هل سيرى أيلول دموعي؟ تلك الدموع التي اكتفت بصلب جسدي وأجلت صلب مقلتي إلى زمنٍ ليس ببعيد.

(إلى حيث لن يكون أيلول!)

إلى حيث يشدنا الرحيل وتودع الضحكات مباسم قلوبنا.

لم يكن عليَّ فعل شيء إلا أن أقول بصوت يكاد من ظلمته يتغطى باللحود إلى عالم الأموات..

- لطالما أحببتك أيلول!

ومشيت عنه وأنا أحمل شوقي الذي لا أعرف كيف بات بي قبل الرحيل.. بل قبل البعدِ حتى.

مضيت وكأنني قوية وقادرة أن أصل إلى السيارة دون أن تتحطم قدماي وأجثو على الأرض كقيثارة جُرِدت من الأوتار..

و كساحة حرب جُردت من الأحياء.

مضيت وبي أمل أني سأراه بعد بضع أيام، وبدأ سكون الزحام في رأسي..

وبعدَ أن تفيق الجُلَنار ويبدأُ العشاقُ بالتلاقي..

سأراهُ وأقول من جديد:

بأن حبي «لا» يكن كذبة فانية
أو قارورة متهالكة ريعها أشياء نائية
أو كأس عبق بين يدي عاشقة غانية
أو أمل مصيره دقائق ليست باقية
أو رياح مرت ما اقتلعت اعجاز النخل الخاوية
لأن حبي كسيول الجبال المُــتوالية!

أوقفني أيلول وأنا في طريق ذهابي.. وقال:

- سـأكون بالقـرب منـكِ دائمـاً يا ورد نيسـان وإن حاولـت البـكاء أو الحـزن سـتهزم قـوتي يا ورد..

أعدكِ لن تكون المرة الأخيرة التي سأنظر إلى عينيكِ بها.

أنا لا أؤمـن أن هنـاك المـرة الأخـيرة لـشيء مـا فَدائمـاً يكـون لابـد مـن المخـرج والبـاب الـذي ينتظـر أن يفتـح وأنا سـأفتح جميـع تلـك الأبـواب التـي تجعـل مـن ورد « ربيـع نيسـان «

- أحب الوعود التي تقطعها يا أيلول.. بل أحبها جداً.

فأنا أعرف أن جميع الوعود التي تصبها في عيني تكون حقيقة تامة!

لم يسبق أن نقضت وعداً أو حرفاً قطعته لي!

ولكنـني قلقـة مـن ذهـابي هـذه المـرة لأنـني سـوف أخـبر عائلـتي عنـك.. بالطبـع لـن أقـول أنـك جـزء مـن قلـبي ولكنـني وأعرفهـم بـك.. وهـذا مـا جعـل مـني قلقـة مـن الرحيـل!

- سوف يكون هذا جيداً يا ورد نيسان.

تقولين بأنكِ تريدين أن تفتحي باباً من أجلي، ستساعدينني إذاً؟!

- مَن قال بأنني سوف أساعدك..

قلتها بتكبر فَ ضحك أيلول.. وضحك قلبي مع أيلول.

لم تكن قهقةُ أيلول عادية بالنسبة لي لأنها كانت كالدواء الذي ينزل في جسم مريض.. هكذا كان وقعها في جسدي!

كان مرضي هو «الخوف»..

الخوف من خسارة أيلول ومن ألا يفلح القتال فنمسي خاسرين في ساحات الحرب وفي الأسِرة مثقلين بالذكريات منهمكين..

ما زال هناك شيءٌ داخلي يأبى أفكاري ويصارع أزمات أحاسيسي العنيدة.

شيءٌ داخل رأسي يقف بعيداً عن المنطق.. عن الوعد وعن طريق الوصول الذي سوف يبنى بدهاليز الصبر الصغيرة التي شاخت إلى الأبد فيَّ!

ولكنني أصارع الأحاسيس العنيدة تلك و أقاتل لكيلا أبكِ..

لكيلا اذبل عندما يتم وضعي بتربة غير تربتك يا أيلول!

٢٠٢٠

٧:٠٩ مساء اليوم الحادي عشر من رمضان ١٤٤٢هـ

أنا أنتظر شهر رمضان في كل ليال وأيام السنة لأنني أحب الصوم كثيراً وأكثر من أية عبادة أخرى ولم أكن أفوت يوماً واحداً من شهر رمضان المبارك حتى لو كنت منهكة من السفر بين المحافظات لِقضاء امتحاناتي.

ولأن الله يعطينا الأجر بحجم التعب والمشقة، كنت أحب الصيام في المتاعب!

كنت كلما شعرت بأن الدنيا أثقلتني التجأت إلى بالصيام لأن الأمل ينزرع في قلبي وكأن الصيام يسقيه..

كأنني أنبت أشجاراً جديدة في قلبي وليس فقط في الجنة التي أسأل الله بها

على الدوام.

كنت أعرف بأن الله يساعدني عندما أهمُّ بالخضوع واللجوء إليه، فهو (جل جلاله) لم يطردني أبداً ولم يقطع يد العون والرضا عني.

تتزاحم عائلتي إلى وقت الفطور وكنا مجتمعين حول مائدة مجيدة كانت قد أعدتها بَلماء وعطر.

نظرتُ إلى أعين الجميع وهم يتناولون التمرة الأولى وشفاههم تتلاطم بالدعاء الذي ملأ صدورهم حتى كاد أذان المغرب أن يثلجها بالقبول!

غصت أنا في أعماق الأفكار المخضرمة و رأيتُ الله فتذكرت أنني متصلة بحبلٍ مع الله.. ألا وإن هذا الحبل هو الصوم..

إنهُ الحبل الذي يروي علاقتي مع خالقي.

ناديت الله بكل قوة بقلبي وأخبرته بأنني سوف احكي لعائلتي عن أيلول ولن أخاف من شيء لأنك معي في كل خطوة أنا أخطوها.

بعد أن أنهينا فطورنا اتجه أبي إلى صالة البيت واختليت وأمي وأخواتي!

كنت متوترة إلى حد بعيد ولم أعرف كيف سأخرج أيلول إلى الوسط دون اشتباكات الجمل وقول أنا عشقت فتىً يدعى أيلول!

لم ألبث غير دقائق قليلة فقلت:

- هل رأيتم صوري عند ذهابي للتجول في القصور الرئاسية..؟

فقُلن:

- ومن أرانا يا ورد إن كانت معكِ فقط؟

أخرجت الصور إلى الوسط قائلة..

- الصديق أيلول التقط لي هذه الصور خلف نهر الفرات عندما اقلني..

فقالت أمي بصوت ممتعض!

- من هو أيلول يا ورد!

تبسم فاهي فقط.. وقلبي يكاد من خفقانه يكسر ضلعي الأعوج ويهرب بعيداً عن المواجهة إلى حيث أيلول.

أجبت:

- إنه صديقي يا أمي، ساعدني في السفر والسكن ولم يجعلني بحاجة أحد.

أخرجت صورة أيلول وأخته وغادة إلى الوسط وأردفت:

- هذا أيلول..

وهذه أصغر أخواته.. اسمها غادة وهي أستاذة جامعية في برمجة الحاسوب.

كنت أشعر بأن قلبي يركض عندما أتكلم.. صمت لبرهة من الزمن وأخذت استراحة طفيفة بمخيلتي..

ولكن سرعان ما سألتني أمي:

- أرى بأن علاقتكِ بهذا الفتى ليست لائقة يا ورد.. لِمَ تبدين قريبة منه هكذا؟

- نحن لسنا قريبين ولكننا أصدقاء يا أمي!

- وهل نحن مجتمع يقبل صداقة المرأة بالرجل؟

أنتِ متهورة يا ورد ودائماً ما تتصرفين بمشاعر، ولكن يجب أن تكوني حذرة!

- لماذا يا أمي، أنا لا أفعل شيئاً!

- لا أعتقد بأن هذا الفتى صديقاً لكِ يا ورد.. أنا أعرفكِ جيداً، فعينيكِ خائفة أنتِ تخفين شيئاً!

- لا اخفي شيئاً يا أمي.

لم أكن لأستطيع أن أقول إلا هذا، فكل ما قررت البوح به قد خانني وبقي ملتصقاً بحنجرتي..

اعتقد بأني جبانة ولا أستطيع الدفاع عن حبي!

لا أعرف ماذا أفعل.

تائهة في الخوف الذي سقط بحياتي دون أن أشعر به أو ألتمس حرفاً من حروفه.. الخوف الذي يطرح لي خسارة أيلول!

يقودني الحب إلى حيث احتلال الطرق المستحيلة ويكبح الخوف قوام فرسي.

لم أكن أخاف قبله شيء.. لم يكن هناك شيئاً يستطيع أن يجعل مني فتاة خائفة إلا خسارة أحلامي!

أما الآن فإني أخاف من الحروب التي سأواجهها لأنني في ظلمة من تلك الحروب، فأما أن أخرج سالمة منتصرة بكل شيء أو محطمة من كل شيء..

لن يكون هناك ما يدعى بـ الوسطية المعتدلة في محيطك.. لن يكون هناك جرح بسيط عابر لأنك لم تكن بسيطاً يوماً، لم تكن سهلاً ومعتدلاً في الحب.. كنت عظيماً جداً..

لم يكن لك ذنبٌ في خوفي فحتى بالرغم من وجودك القوي والداعم معي إلا أنني أخاف أن أعيش ما لم تكن أنت واعتقد بأنها فكرة غير واردة بالنسبة لفتاة لم تؤمن يوماً بالحب ولكنها أحبتك!

بعدك جعل مني شمساً باردة يا أيلول ولا أعرف ماذا أفعل ليعود الدفء إلى قلبي.

أتذكر صديقة المكتبة كلما راودني شعور بالخوف من شيء يتجه خيطه إليك، وأتذكر أنها أخبرتني..

(أن الكتب أصدقاء جيدين) حيث لا يعرفون الخيانة والكذب وما يؤدي إليهما.

اتجهت إلى مكتبتي وكنت أعرف أني سوف أجد كتاباً تبوح أسطره كلمات متشعبة من أسراري الدفينة التي لا يعلمها إلا تلك الكتب التي تترأس صدر مكتبتي.

وقعت يدي على عدة كتب..

فتحت أوراقاً وبقيت أقرأ الصفحات عدة فـ وجدت رسالة كتبت بين صفحات هذا الكتاب تقول:

حبيبي محمد..

أتمنى أن تقرأ هذه الكلمات يوماً ما قد اكون فيه حبيبة لك وقد لا أكون..

أنا أعرف بأنك عندما تقرأ ستبتسم عينيك ويحزن قلبك عندما ترى أن أسمك يترتب فوق السطور وبين السطور وأنني أريده أن يخلد في ذاكرة الكثيرين وليس ذاكرتي فقط ولعلك تتساءل فيما إذا كنت ستخلد بحب أو سيضرب فيك مثلاً في التعاسة، لأكون معك صادقة.. أنا أحببتك ولا أدري فيما إذا ستكون ألماً في قلبي أم مرهماً لجرحي ولكنني أخبرتك بأنني سأجعل العالم يشهد قصة حبنا وها أنا الآن أُشهدك أولاً ولعلي أعرف بأن جميع الطرق لا تصل إليك ولكنني أكتب إليك!

لا أعرف لمَ استوقفتني هذه الرسالة.. لمَ بقيتُ أنظر إلى تلك الجملة الأخيرة.. ولكنني استرسلتُ تلك الرسالة بقلمي وأكملت جزأها المفقود ..

(أتمنى أن تؤديهِ إليكِ إحدى حجارة الطرق في هذا العالم.. شعرت بكِ واحسست بتلك النار التي تكتوين في حِمَمِها.. فهمت بأي وسيلة تصارعين وأي الدموع تبتلعين فاصبري عل جزءاً من حجار بها يبني طريقاً وإليه تصلين) !

أترك لكِ أمنيات وردَ نيسان

وأُغلق الكتاب..

عندما كتبت لتلك الفتاة التي لن تقرأ أمنيتي لها كُنت أعالج بذلك خوفي

وألقي بأعباء عقلي على ذاك الكتيب المليء بالأسطر التي تصرخ بصمت.. والتي تسمعني أيضاً!

كنت اطبطب على عواصف المشقة التي تراود مخيلتي بين الحين والآخر والتي تجتاحني في لحظات الصمت.

لا تستطيع مخيلتي أن تسكت حتى وإن سكت قلمي إلى الأبد!

فما الفائدة في أن يسكت؟

لم ألبث في دائرة الصمت الطويل هذا وعقلي يكاد يهرب إلى الفناء مني سوى الوقت الذي استغرقته في الكتابة.. والتخلص من هذا الحَزن!

عدت إلى الله.. وأخبرت قلبي: « لآ تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَآ»

لأنني رغم كل شيء أعرف بأن الله معي.

كنت كلما شعرت بأنني ابتعدت عن الله اتوسله أن يعيدني إليه دائماً حتى لو كلفني هذا قلبي وعقلي معاً...

فإن الحياة يعوضها الله بحياة أخرى..

ولكن لا يعوض فقدان الله شيء !

إن خلا قلبي من الله سوف يصبح باحةً للذنوب..

فـ ليأخذ الله كل شيء ولكن ليملئني به!

قالت لي عمتي ذات يوم..: (إن بينك وبين مخافة الله وحبه شعرة يا ورد.. وإن استطعت قطع تلك الشعرة بقلبٍ راضٍ فإنكِ تجاوزتِ الله ولن يمنعكِ شيئاً بعد)

لا انسى هذا ومهما بلغت من الجزع النفسي اتجه إلى الله كيلا اضيع..كيلا اتخطى مخافة الله واستمر بكوني عبدة فقيرة لا ملجأ لها إلا الله..

إن الله يريد منا العودة دائماً وسوف نحظى بالقبول ما دامت عودتنا صادقة..

إنـه يحميـني مـن الخـوف الـذي اتأكل بـه فـور عـودتي وسجـودي.. وهـذا لأنـهُ الصمـد الـذي تصمـد بوجـوده الكائنـات.

٦/١١/٢٠٢٠ م

صباح يوم الجمعة

قـررت مسـبقاً أن أخـبر عمـتي عـن أيلـول وعزمـت أخبارهـا اليـوم.. أخبارهـا الحقيقـة كامـلة كما يجـب أن تكـون وكما يجـب أن تعـرف مـني لا أن تسـمع أو تلتمـس شـيئاً مـن هـذا القبيـل.

لم أحب يوماً الخوض في المعارك الخاسرة وأنا الآن أقاتل كي احظى بمعركتي!

تواعدت مع عمتي في المقهى المقابل لمدرستي القديمة..

لأن المقهى هادئاً و تحتله رائحة القهوة والشاي.

ذهبـت قبـل موعـدي لهـا بسـاعة كامـلة وأنا ارتـب جمـلي الـتي تتسـاقط مـن شـفتي مبعـثرة.. ولكـن لا ينفـع شيء فكلمـا جئـت قـوله وجدتـه هـرب منـي مـع الكلمـات.

لم ألبث طويلاً إلا أن اتصلت بأيلول اشرح له مرارة تعثر صوتي، فقال لي:

- لا تخبريهـا شـيئاً الآن دعيـني آتي غـداً ونُخبرهـا معـاً، أنا أشـعر بقلبـكِ يا ورد نيسـان!

- ولكنـني أريـد اخبارهـا بمفـردي.. أريـد أن أقـول لهـا كنـتِ محقـة فـأنا أحببت أيلول..

- لماذا يهمكِ هذا الوجود لها يا ورد نيسان؟

- لا أعـرف، ولكـن هـذا يشـعرني بحـالة أفضـل لأنـني كذبـت عليهـا ولم أخبرهـا

الحقيقة منذ البداية!

- لا تقلقي يا ورد..

سأكون كالظل لكِ..!

أغلقت الهاتف من أيلول وبقيت أنتظر مجيء عمتي..

إنها قادمة.. أنا أراها الآن قبل أن تدخل إلى المقهى.. إنها خلف الباب الزجاجي تمشي ببطء لعلها تستمتع بالجو الغائم ودرجات الحرارة المنخفضة!

دخلت وجاءت إلي تلقي تحية جافة.. إنها تخيفني قبل أن أتكلم حتى!

قلتّ:

- كيف حالكِ يا عمتي؟

قالت وهي تثبت عينها بأم عيني دون أن يتطرق رمشها للذبول إلى عينها ودون أن تبتسم قليلاً كعادتها:

- أنا لست بخير!

اعطني هاتفكِ يا ورد..

قالت بحزم!

- ولكن لمَ هاتفي يا عمه؟

- أخبرتكِ بأن تعطيني الهاتف، لا أن تطرحي الأسئلة!

- ولكـ...

- أعطني الهاتف!

يجب عليَّ أن أخبرها قبل أن ترى أيلول.. قُلتُ في نفسي!

- دعينا نتكلم، ثم خذي هاتفي وكل شيء!

- أعطني الهاتف يا ورد.. ألا تسمعين.

حسناً أنا أستسلم سأعطيها الهاتف ولكن كيف سوف أبرر كذبتي.. ما الذي سَأقوله لها عندما تكتشف بأنني كاذبة؟

ماذا سَأقول عندما تسألني عن عقيدته!

إن اسوء ما قد يكون به المرء عندما يلجأ للكذب خوفاً من الحقيقة والأسوأ من هذا هو عندما أعيش في بلد ينقسم

بالدين أنصافاً كثيرة.. فلا هذا يرضى ولا ذاك ينصت والقلوب ضحية الانقسام هذا!

لا يمكن أن نحارب الأفكار هذه.. أن نحارب مجتمعاً كاملاً يظن أن ما تمليه عليه العادات هو فعلٌ صحيح لا ريب فيه.

لا يمكن أن ننتصر بدون قتال.. فإن القتال سيمنح قلوبنا بعضاً من الطمأنينة لأننا لم نتخاذل عن الدفاع عن أفكارنا وقلوبنا التي أنهكتها تلك العادات المريبة!

كان من المفترض أن أمحو كل شيء يتعلق بأيلول فر هاتفي لئلا يراه أحد

ولكنني فضلت أن انكشف بأسوأ الطرق على أن أمحو أيلول أو حرفاً قد كتبه بلوحة مفاتيح عادية يستطيع أن يكتب غيره أضعافاً كثيرة.

فتحت عمتي هاتفي!

يا إلهي..

إنها لا تتفاجأ ولم تبدي أي رد فعلٍ حتى غير الذي كان من قبل على وجهها!

أتساءل لماذا.. وكيف حدث هذا ألم نتواعد في الصباح وكان كل شيء على ما يرام.. إذاً لماذا جاءت والغضب يملأ وجهها ويديها غير ثابتة!

ولكن لماذا تستمر بالصمت ولم تصرخ في وجهي وتقول: (لماذا كذبتِ عليَّ عندما سألتكِ مَن يكون أيلول) ؟

هدوؤها مخيف وبارد..

ها هي الآن ترفع عينيها وتضعها بعيني ولكنني لمَ لا أرى القسوة؟

كان الخوف أخذه مبتغاه ليُظهر في عينيها ارتجافاً.. وقالت بصوت يبتلع الارتعاش:

- إنهُ لا يحبكِ يا ورد.. أتركيه!

- ولكـ..

- عدا عن ذلك فإنهُ يخالفنا العقيدة.. والداكِ لن يوافقوا اطلاقاً!

- أرجوكِ يا عمتي لم تقولين هذا وكيف عرفتِ.. مَن أخبركِ؟

- إن جميع الناس التي تحيطكِ يا ورد.. جميعهم كاذبون لا يريد أحد لك الحب ولا السلام!

- ماذا تقصدين بجميعهم.. أرجوكِ أخبريني ما الذي تعرفينه أنتِ ولا أعرفهُ أنا؟

- هل تثقين بجميع أصدقائكِ بمَن فيهم مريم؟

- لا أثق بالجميع ولكنني أثق بمريم كثيراً إنها كالأختِ يا عمه وأنتِ تعرفين هذا!

ولكن ماذا حدث..؟

- ليس هناك شخص في حياتكِ أهلاً للثقة يا ورد أقسم لكِ بهذا.. إنها الحقيقة!

- لمَ تقولين هذا؟

قلتُ بحزم ومن ثم أردفت:

- أنا وأيلول قررنا أن نتزوج في مطلع العام القادم !

- سوف تعرفين بعد فوات الأوان أن كلامي حقيقياً.. اتركيه قبل أن يفعل يا ورد.. وقبل أن يعرف والدكِ.. سوف تخسرين يا ابنتي!

- لماذا تقولين ابنتي وأنتِ لا تعطيني سبباً واضحاً لأتمسك به.. قل ما تقوليه أشياءً لا معنى لها ولا صحة!

أنا أحبهُ يا عمتي وهو كذلك.

- إنه لا يحبكِ!

- حسناً، لم يعد لي القدرة على البقاء سوف أغادر يا ورد.. فكري بكلماتي جيداً!

- لحظة يا عمه أرجوكِ، لم لا تخبريني الحقيقة كاملة؟

- أ أخبرتني أنتِ الحقيقة كاملة يا ورد؟

- لم أفعل لأنني كنت خائفة..!

- وأنا أيضاً خائفة الآن.. خائفة جداً من الحقيقة يا ورد لأنكِ لن تستطيعي التعايش معها.. ومع فكرة أن الجميع يخون وأن الجميع قد يخذلكِ وأنتِ في أشد مواطن الحزن والحاجة.. يجب أن تعرفي هذا جيداً..

أحياناً يخذل الإنسان نفسه أيضاً لما كانت تعتقد به تلك النفس.. قد يخذل الإنسان نفسه لأنه السبب في الكذب على قلبه!

وقفت بصمت لعدة لحظات ونظرت في عينها محاربةً اليأس الذي يحاول التشبث بعالمي الوردي وثم أردفتُ لقولها:

- أنا أحبه.. سوف نتزوج.

وسوف اقنع والدي!

عاودت النظر فيني...

تنظر الآن إلى يدي وهي تحتضن اليد الأخرى وتهدئها من الارتعاش..

تنظر إلى فكي الذي تضغط أسنانه العليا على السفلى بغضب وتوتر شديدين!

إنها حزينة أنا أرى هذا..

إنها لا تكتفي بالحزن أرى بأن عيناها بدأت تلمعان لا بل تخطت مرحلة اللمعان إنهما تغرقان الآن..

بعد ثبات تلك النظرات رمش جفنيها منادياً لإنقاذ عينيها من الغرق.. قالت:

- أتودين معرفة مَن أخبرني عن علاقتكِ بأيلول؟

أنظر إليها وقلبي يرتجف وما زالت عيناها غارقة بالدموع..

- أود أن أعرف!

- مريم قالت لي هذا..

قالت عمتي هذا ولملمت ما تبقى من عينيها وخرجت رويداً رويداً من المقهى..

خرجت وهي لا تزال تنظر لي من بعيد..

ولكنني لم استوعب ما قالت.. لم أدركه بعدُ!

ذهبت بدون أن سأل سؤالاً واحداً حتى!

كيف مريم قال هذا؟

لابد من أنها مزحة سخيفة من المزح المعتادة لمريم..!

بقيت صامتة.. لم أحرك شفتي بكلمة وبقيت ابتلع صدمتي..اتحمل ضربات تلك السطوة بمفردي.. تسللت إلي لعنة الخوف.

هل يجب عليَّ أن أتقبل الآن أم أبكِ أم ماذا؟

هل من المفترض أن أذهب إلى مريم وأعرف السبب الذي جعلها تفعل هذا؟

نعم يجب عليَّ أن أذهب الآن إلى مريم.. إنها لا تفعل هذا أنا متأكدة!

مشيت في الطريق.. تحت المطر والغيوم.

تبللت ملابسي وانقلبت شفتي إلى اللون الأزرق الباهت لأنني تجمدت!

أرى أن أيلول يتصل.. لابد من أنه قلق عليّ ولكنني لا أستطيع التكلم مع أحد الآن أريد أن أصل إلى بيت صديقتي ولكنه أرسل لي:

- أعرف بأنكِ فتاة قوية يا ورد نيسان..

أعرف بأنكِ تتجاوزين كل المصاعب..

سوف أحبكِ إلى أن يُقضى أجلي..

تطاير المطر على وجهي من جديد وبلل هاتفي و قلبي..

أ تبكي السماءُ لأجلي؟

أم هذهِ صُدفة القدر؟

أعتقد أن هذا الانغماس في الحزن إلى حد الإفراط سوف يؤدي بي إلى الغرق قبل أن يغرقني المطر!

وصلت الآن إلى منزل مريم.. طرقت الباب وأنا ارتجف من البرد!

فتحت مريم الباب وأصيبت بالدهشة من جسدي الذي يرتعش وملابسي المبللة.. أو اصيبت بذهولٍ لقدومي دون سابق إنذار لأن هذا ليس من عادتي أبداً!

أدخلتني إلى المنزل بسرعة وأحضرت لي ملابساً و اشعلت التدفئة..

ولكنها صامتة ولم تنظر في عيني بينما أنا لم أبعد عيني عنها لحظة واحدة.. سألتني:

- هل أنتِ جائعة؟

ما زالت لا تنظر لي!

- هل أود لكِ بأنني مشردة؟

- لم أقل هذا عزيزتي، ولكنكِ كنـ...

- عند مجيئي إليك هطل المطل ولم أريد أن أتوقف عن السير تحته حتى وإن تبللت ثيابي..

ألا تذكرين عندما كنا مراهقات في المدرسة كم كنا نرقص تحت المطر سوياً.. ألم نمسك بأيدي بعضنا ونقسم ألا نفترق..

«تحت المطر»

لماذا تبدين هذا الاستغراب الآن لأن ملابسي قد تبللت يا مريم؟

- لم أبدي استغراباً، فقط قلقت عليكِ!

قالت هذا ولم أعرف أكانت تغص بصوتها أم أن صوتها تغير بالنسبة لي!

أردفت تقول:

- تبدين متعبة.. استريحي يا ورد!

- حسناً، ولكن ألا تريدين معرفة سبب التعب الذي أشعر به؟

أو لماذا أنا هنا دون أن أخبركِ بمجيئي يا مريم؟

أو أنكِ تعرفين السبب غالباً.. فلمْ تتجرئي على السؤال اطلاقاً يا صديقتي!

- لم أرغب بحدوث هذا..

قالت بصوتٍ متهدج!!

- ألم أخبركِ سابقاً عن أيلول وكم من مرة شرحت لكِ بها مخاوفي.. ألم أقول لكِ إن عرفت عمتي من غيري لن أكون سعيدة ولن أربح أي جولةٍ أخوضها..

كيف لكِ لم ترغبي ولكن أخبرتها.. لماذا أخبرتها قبلي بساعاتٍ قليلة، أرجوكِ اصنعي لي أعذاراً دعيني أتقبل الموقف الذي وضعتني به...

أنا الآن موضع الكاذبة التي لا تحترم أحد وتجعل الجميع تحت سعادتها!

أنا أنانية الآن يا مريم.

لماذا تصمتين.. تكلمي أرجوكِ يا مريم!

- لا يوجد شيء أخبركِ بهِ غير أنني اسفة!

- هل اسفة فقط؟

لماذا فعلتِ هذا... ما الذي تريدينه من هذا الفعل؟

- أرجوكِ يا ورد، هذا يكفي.

أخبرتـك بأن لا شيء عنـدي لقـوله.. تسـتطيعين الذهـاب مـتى مـا شـعرت بحـالة جيـدة..!

يا إلهي إنها تطردني أيضاً!

- صدقيـني لـن أسـامح قسـوتكِ هـذه.. لا أعـرف مـا الـذي أردتـه مـني.. كان بإمـكاني أن اعطيـكِ كل شيء أردتـه.

- كل شيء؟

- كل شيء يا مريم، ولكنكِ خذلتني!

- كاذبة، لن تعطيني أي شيء مما أردت!

-هل تضعين حبكِ في أشيائي.. منذ متى؟

- إذا انهيتِ ما عندكِ فلتذهبِ أرجوكِ!

كان كل شيء غريبـاً كأنـني حـلم أسـود، حـتى أنـني لم أصـدق وبقيـت منتظـرة تلـك المعجـزة الـتي توقظـني مـن حـلمي!

إن تلك الصديقة التي أطلقت عليها أختي تطردني الآن وتقول لي كاذبة!

لِمَن اشرح خيبتي ؟

إن الـتي كنـت اشرح لهـا خيبـاتي وسـقوطي وانكسـاراتي صـارت لي الخيبـة والسـقوط.. لِمَـن أ

اشرح الآن ضعفي وعجزي وهواني؟

سـأخرج هـذه المـرة مـن بيت صديقـتي مطـرودة ولا أعـرف السـبب.. لا أعـرف مـا الـذي أرادتـه مـني ولم أعطيهـا له..

ولكن كان هناك بعض الأشياء لم تقلها بعد..

نادت بي...

- ورد، انتظري!

أعتقد أنها ستعتذر، إنها تشعر بالغثيان من كلماتها..

أردفت مكملة:

- الزاوية الوردية..

- ما بها!

- خذيها لكِ إلى الأبد. منذ أن عرفتكِ وأنتِ لا تورثين لي سوى الحزن لا يوجد مكان لتلك الزاوية بداخلي، لم أحبها يوماً.. خذيها لتنفعكِ إن كانت ستفعل!

غالباً تمزح..

لعلها تعتذر بعد لحظات..!

- لا أريد رؤيتكِ مجدداً...

وأغلقت الباب!

اعتقدت أن عقلي أصغر من أن يدرك مساوئ الكلمات.. أقل من أن يتقبل النكران.. وأضعفُ من ألا يبكي!

بكيتُ القسوة التي لا أعرف سببها..

بكيتُ الصديقة مرة..

والأخت مرة أخرى..

بكيتُ قلبي!

يستطيع المرء أن يتقبل الخسارات أحياناً.. ولكن خسارات الأصدقاء تكون متعبة إلى حد الإفراط!

الأصدقاء الذين خسرتهم دون أن تعرف لماذا.

٢٤/١١/٢٠٢٠ م

أشعر بالوحدة..

أنام متأخرة واصحو متأخرة.. رحيل مريم ترك بي أثراً من جُرحٍ يُدمى.

لا شيء يمكن أن يشفع لقلبي أو يكون له خليل و حبيب إلا أيلول.. فأنا انتظر الساعات والأيام أن تخلع ثوبها الأبيض البالي والخالي من النقوش والزهور وأن تأتيني بأيلول تتلون بالورود!

منذ ذاك اليوم لا أستطيع أن ألهو مع أي شخص أو اقوم بعملي على أكمل وجه.. الحزن يمزقني بعد ما سمعت كل تلك الكلمات بحق مريم وكانت صحيحة..

ولكن ماذا عن أيلول؟

لماذا قالت عمتي هذا.. ماذا رأت..؟

أيلول لم يحزنني اطلاقاً..!

كان المفترض ألا أُصدق ما أخبرتني به لأنني لا أتقبل دور الأم لها على أي حالٍ..

« ولكنها كانت كالأم تشعر بكل شيء قد يؤذي صغارها»

أنا خسرتها.. لم يكن لدي الحق بأن أتكلم معها من جديد بعد آخر حوار دار بيننا، كنت متمادية إلى حدٍ مُضني!

هل سأذهب لأُلقي بنفسي على قلبها وأقولُ: (أرجوكِ ساعديني لأفهم.. أخبريني)؛

يا لي من حمقاء..!

أريد أن أتكلم عن تلك المشاعر التي تنام بقلبي..

أريد أن تكون عمتي مخطئة هذهِ المرة أكثر من أي مرة!

الساعة الآن الثانية عشر منتصف الليل وأنا متجهة لأُوقظ أختي بَلماء

لأنني أشعر بانفلات الحزن على جسدي كله وليس فقط بقلبي!

ناديتها بصوتٍ منخفض..

- بَلماء!

أجابتني بـ: - نعم.

- إنكِ مستيقظة إذاً..!

- بالطبع عزيزتي.. هل تريدين شيئاً؟

- أريد أن أتكلم.. هناك سرٌ يختبئ بعقلي ويربك السعادة والحركة والإدراك داخلي ويعرقل مسارات الحب ويحرفها!

- أخبريني بما يؤلمكِ يا ورد!

- لا أعرف من أين أبدأ..

داخلي شيء لا أستطيع تصنيفه.. هل هو جيد أم سيء.. لا أعرف!

كل ما أُحِسُ به ارتجاف دمي وأنا أتكلم عنه!

- حدثيني يا أيلول..

لم أقبل على الكلام..

فقط قلت «أيلول» فاضحة سري ومحررة قيود كلماتي!

- أتحبينه إلى هذه الدرجة..؟

- إلى التي أبعد منها.

إنه الشخص الذي غرقت في أمواجه المتلاطمة.. غصت بأعماقِ محيطه!

هل يحبني أيلول كما أحبه.. أنا خائفة من كلام عمتي.. إنه يطنُ في أذني منذ أيام..

« أيلول لا يحبكِ يا ورد «

إنها كلمةٌ قاسية تتيح لي فرصة الموت!

- تعرفين بأنني سأقول لكِ الحقيقة يا ورد!

- أنا أريد الحقيقة.. لا أريد التزيين والتلوين.. لا أريد أن أخرج من تلك المتاهة لبضع ساعات أو أيام.

أريد أن أعيشها بكل ما فيها من دروبٍ ومطباتٍ عثرة حتى أفك لغزها وأنهاها إلى الأبد.

وحتى أتمكن من الصمود في وجه الحقيقة!

- إذاً لماذا أنتِ خائفة من الحقيقة يا ورد؟

- لست خائفة!

- بلى أنتِ خائفة.. أنتِ ترتجفين الآن يا وردتي!

- حسناً، أنا مُرتعبة.. لا أعرف لما أشعر بهذه الأشياء السيئة.. أنا تائهة في الضياع!

أنا أحبه يا بَلماء..

عندما أفكر أنني سأعيش يوماً واحداً دون أن أحبه فيه وأستشعر ذلك الحب فإنني بالكاد أستطيع آخذ شهيقاً حتى!

ماذا يمكنني أن أفعل إلا الحب؟

- هل سوف تتقبلين كلامي؟

- لو لم أتقبل.. لما كنت قدمت

-» يفعل الله ما يراه صحيحاً دائماً «

«وَسَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرَىٰ»

إن كُنتِ تتألمين يا ورد، فهذا لأن الله أراد هذا.. وإننا ندعو دائماً بأن يعطينا الله الأفضل حتى لو كان على حساب الألم.

ولا تنسي أن الله يختبرنا بأحب الناس على قلوبنا ليرى مدى قوة تحملنا وصبرنا وشكرنا أيضاً يا عزيزتي ورد!

تذكـري أن سُـلَيمان عليـه السـلام عندمـا بُـلي بحـكمٍ عظـيم قـال: « لِيَبْلُـوُنِي أَأَشْـكُرُ أم أَكفُـر»؟

إن ابتلاءات الله اختبار يا ورد.. إنها اختبار حتى للأنبياء المعصومين!

- هل يمتحنني الله بأيلول بعدما امتحنني بـ مريم؟

- كنـتِ تشـتمين الإيجابيـة الكاذبـة وأنا أخبرتـكِ الحقيقـة الـتي تقـول: (رُبما يمتحننـا الله بـكل شيء)

صمتت بَلماء قليلاً ثم استرسلت:

- لا تعلقي قلبكِ إلا بالله يا وردتي.. إن مَن تعلق قلبه نجح ونجا!

بعـد أن أنصت لكلمـات بَلمـاء خرجـتُ إلى الحديقـة.. جلسـتُ تحـت أشجارهـا وأنا أنظـر إلى سمائهـا المكللة بالنجـوم والمعجـزات.

كانَ الهـواء يأتي نسـيماً عليـلاً يُلاطِـف وجهي.. يداعـب خصـلات شـعري المتناثرة عـلى كتِـفيَّ.

أسمعُ أصوات أوراق شجرةِ السدر تهمس في أذني!

(هـل كان اليـوم حزينـاً.. اقطـفي ورقـةً منـا وأكتـبِ حزنـك يا وردتنـا، سـوف ينجـين إذا أخبرتنـا فلـن نبـوح حزنـكِ لأحـد ولِتكـوني مطمئنـة سَـنحافظ عليهـا مـن الـرياح.. لـن تسـتغل ضعفنـا لتأخـذ سركِ يا أمـيرة الـورد)!

أخـذتُ قلمـاً رصـاص وقطفـت ورقـة مـن إحـدى قطوفهـا المتدنيـة وكتبـت عليهـا:

«لا أستطيع أن أبوح بشيء مني، أخشى بأن تمزق تلك الرياح حبي»

ولصقتها بورقة أخرى من الغصن ذاته.

لكنها سرعان ما همست لي من جديد شجرة السدر العملاقة المعجزة..

(نخـشى نحـن أيضـاً أن تمـزق أوراقـكِ رياحـاً تهـب بـ شهـر أيلـول.. ولكننـا أقـوياء بحفـظ الأسرار.. فنحـن لا نسـمح لـلأسرار أن تتطـاير ونحفظهـا في جـذع

الشـجرة).

اقتربت من الشجرة المعجزة وهمست:

«سيُساعدني ربيع نيسان في الزهور مجدداً.. فأنا أذبل ولكنني لا أموت»

٢٠٢٠

في يومٍ بارد جداً

سـوف أخـبر أيلـول بـكل مـا يخيفـني.. أُريـدهُ أن يمسـك يـدي وأن لا يفلتهـا اطلاقـاً.

قال لي اليوم بأنهُ سيأتي ليراني وكان هذا خبرٌ جميل على قلبي.

انتظرتـه في المـقهى الـذي تملـؤه رائحـة القهـوة والشـاي.. وكأنـني ولـدتُ مـن جديـد!

بالطبع لم أنتظر طويلاً إلا بضع دقائق قليلة..

دخـل المـقهى بابتسـامة لا تفـارق وجهـه.. احتضنتـه بعيـني قبـل أن أقـول لهُ مرحبـاً!

جاءني مكللاً بالحب الذي اشتقته.

تكلم كثيراً وأنا أنظر إلى مخارج الحروف من فمه.. وأتمنى لو أن صوته يحتضن

لم أنطـق إلا بكلمـات قليـلة هـذه المـرة.. أردت أن أسـتمع إليـه.. أردتُ تسـقى عينـاي فَمـن ظمئهـم كـدت أُصـاب بالعـمى!

قال أيلول:

- قصي عليَّ سبب انهيار ضحكاتكِ الجميلة يا وردَ نيسان!

امسكتُ يديهِ بعنف.. مررت أصابعي على كفيه وعيناي على عينيه وقلت:

- أشعر بالخوف..

- ورد..

أتخاف ورد؟

- أنا خائفة.. واتبعثر في الظلمة يا أيلول، لا يوجد نور في النفق وحتى الأحجار الصغيرة تعثِر سير خطواتي.

ابحث عن عصاً اتكئُ عليها فلا أجد.

ابحث عن خيط امسكه فيسير بي إلى النور فلا أجد.

- مَن أوقع بكِ إلى الظلمة وسحب النور من عينيكِ يا وردَ نيسان؟

- الخوف من فقدانك!

- لن نفقد بعضنا!

- أتساءل احياناً فيما إذا يجب أن نضع مسافة أمانٍ بيننا وبين من نحبهم..!

هل يجب أن نترك تلك المسافات بيننا يا أيلول؟

- لا تفعلي هذا يا ورد نيسان.

تريدين مسافات الأمان تلك.. لماذا؟

هل تعرفين كم أحبكِ.. وكم أثقُ بكِ؟

كيف لي أن أجعل من قلبكِ ساحة حرب مليئة بالكوارث، يغطيها الموت من كل حدبٍ وصوب؟!

- أحبك.. وأعرف أنك لن تحط بي إلى الأرض الجرد.

رحل أيلول وبقيت أنا أجلس على طاولة المقهى وبجانبي كوباً من الشاي الساخن..

لم أعرف هل أنصرف إلى البيت الآن.. أم امشي في الشارع.. ما هو أفضل

شيء يمكن أن أفعله بعدما رأيت أيلول!
فَ طلبت من النادل إحضار ورقة وقلم.. إنه أفضل اختيار..!
أحضر النادل أوراقاً كثيرة وقلم حبرٍ أزرق..
ارتأيت جملة الخوف في قلبي وجئت قولها لتلك الأوراق:
سوف أهزم خوفي ولن أخاف شيئاً من جديد..
إليكَ أكتب أيها الخوف.. السلامُ عليك سَأرميك على الورق!
لن تحدث فيّ الألم من الفقدان..
لن أتزَعزع بسبب ما أحلتني إليهِ من أفكارٍ مسورة بالفراق..
لن أتناثر كما تتناثر الذكريات في العقول التي خسرت كل شيء.. لأنني أريد أن أعيش!
أيها الخوف..
لم أرى من أيلول إلا الحب والحياة ولكنك تحاول العبث معي.. لن تستطيع المقاومة في رأسي سأجعلك سُلماً لهبوط أفكارك من عقلي!
يجب أن يكون لذلك الخوف نهاية مطافٍ فيّ، وبداية نهاية ذلك المطاف هو تعلم كيفية تحمل الخوف..
وأول شيء أفعله هو الكفاف عن الإفراط في الاهتمام في الخوف هذا.

١/٢٤/٢٠٢١
كُنت أنا ورد نيسان.. وكنت أنتَ رياح أيلول!
بدأت يومي بالذهاب إلى الوجهة التي أستطيع أن أرى بها أيلول.. حديقة

الكليـة!

أخبرتـه بأننـا مـن المفـترض أن تـتم خطبتنـا في مطلـع العـام الجديـد كما أخـبرتُ عمـتي...

فقال لي وكأن الأمر لم يعجبه وبِغلوٍ شديد:

- لماذا أخبرتها هذا يا ورد.. مَن قال بأنهُ سيكون؟

مـن الممكـن ألا نسـتطيع أو أن نواجـه المشـكلات في دراسـتنا أو أي شيء.. فتكونـين كاذبـة!

- أكون كاذبة؟

- نعم فأنا لا أريد لكِ هذا.

- أخبرتهـا هـذا لأننـا اتفقنـا يا أيلـول.. ولأنـني فعـلاً أردت الارتبـاط بـك بشـكل رسمي دون خـوف.. أريـد أن أحتضـن يـدك دون أن أشـعر بذنـب تجـاه عائلتي. فعلت هذا لأنني أحبك!

- حسناً عزيزتي، أنا اسف الانفعالي.. لا تحزني !

- لا بأس يا أيلول!

- ماذا قالت لكِ عمتكِ عندما أخبرتها بهذا؟

نظرت إليه وأنا مترددة من أن أقول كلماتها.. ولكن يجب أن أقول!

- قالت.. لن يأتي!

- أنا أخبرتـكِ يا حبيبـتي بأن المراحـل الأولى مـن دراسـتنا لـن نـتزوج ولكـن عندمـا نكـون في أتم اسـتعدادنا لاسـتلام الشهـادة وبعدهـا سـنتزوج.

- ولكن كان هذا خياراً وليس قراراً يا أيلول...

- سوف أتحدث مع أبي وأختي سارة.. أعدكِ.

تركت أيلول ورحت مبتعدة عنه..

لم أشعر بصدق الوعد هذه المرة.. بل لم أشعر به اطلاقاً

قُبِضَ صدري.. ابتعدت عنه والصمت يزلزلني.

لماذا أشعر بالضيق.. لماذا لم أُصدق هذه المرة؟

أوه يا رباهُ.. إنني متعبة من شعوري.. احتاج عائلتي.. أريد أن أعود الآن إلى كتبي وسريري!

عندما تعطي ثقتك الكاملة لِشخص ما إنك بذلك ترمي بنفسك إلى طريقٍ نهايته هاوية وهو يعرف بأن نهايته هاوية ولكنه لا يقف على أي حال!

أن تثق بالأشخاص ثقة عمياء فهذا غباء.

بعد أن شعرت بالتعب والإرهاق الشديد قررت أن آخذ إجازة وأعود إلى عائلتي أسبوع كامل!

قلت لأيلول أنا ذاهبة هذا الأسبوع لعائلتي.. يجب أن أراهم..

لم يبدي أيلول حُزنه مفارقتي ولكنه قال:

- سوف أشتاق لكل شيء فيكِ يا ورد.. أنا أحبكِ!

- وأنا كذلك يا أيلول.

- وأنتِ ماذا..!

- بالطبعِ مشتاقة لك قبل أن أرحل، أنت تعرفني يا أيلول!

هممت بالرحيل هذه المرة وأنا أريد أن أبتعد عن أيلول فما قاله لي في المرة الأخيرة أحزنني وترك بي جبالاً من الخوف!

أن أبتعد عن أيلول.. عن جسده ولكن قلبي ضل ملاصقاً له ولم تريد عيناي أن تبتعد!

بعد وصولي إلى المنزل لم ألبث إلا ساعات قليلة وإذ بأيلول يقول لي:

- أين أنتِ يا ورد؟

هل أستطيع أن اتصل؟

- قبل خمسة ساعات وصلت إلى المنزل..

أ أنت بخير؟

- لابأس ليس بي شيء!

اتصلت بأيلول.. لم يكن صوته المعتاد.. إنه متعب وبه شيء من الأرق.. كأنه يرتجف!

قال:

- كيف حالكِ.. وكيف عائلتكِ؟

- نحن بخير.. ولكنني متعبة قليلاً!

- سأشتاق لكِ يا ورد نيسان.

- هل أنت بخير عزيزي.. لماذا صوتك يتهدج بهذه الطريقة؟

- أحبكِ كثيراً أريد أن تصدقي هذا يا ورد نيسان.

- أصدقك.. وأعرف أنك تحبني كما أحببتك على الأقل!

- هناك شيء أريد أن أخبركِ به.. وأريد منكِ أن تسمعيني إلى آخر حرف سأقوله!

ماذا سيقول أيلول.. تساءلت.

نبرة صوته كانت مخيفة و يتملكها الشك والحيرة في الإخبار أو عدم الإخبار بما جاء ليقول ولكنني أجبته برحابة صدرٍ خشية من أن يتراجع عن الإفصاح بما هو آتٍ عنه!

- أسمعك عزيزي أيلول..

قال:

- ورد...

ثم توقف ولم يكمل.. إنهُ في سكون تام مع عقله.

عاد ليقول:

- ورد..

أعرف أن ما أنا آتٍ لقوله لن يسعدكِ كثيراً وسيكون وقعه صعب على قلبكِ ولكن هذا ما يجب أن يحدث!

إنه يعيد السكوت مراتٍ عديدة.. وهذا ما يخيفني..

واصل أيلول بالحديث:

- ورد..

لا يمكن أن نتزوج.. عمي المتوفى مديون لعدة أشخاص وقيمة الدين مئتا مليون دينارٍ ويجب أن نسدد الدين خلال هذه الخمس سنوات القادمة.

تَزوجي يا ورد..

عيشي حياتكِ لكيلا يفوتكِ القطار وتمضين ما تبقى من عمركِ وحيدة!

ضحكت بقوة..

- ولكن مزحتك هذهِ لا تنطوي على ورد نيسان يا عزيزي أيلول، أنت الآن تحاول أن تكتشف مدى حبي لك وتعلقي بك غالباً ويبدو أنك نسيت أن الهواء عندما يدخل رئتي فإنه لأستمر بالحياة لأجل عينيك أنت يا أيلول..

حاول مجدداً أن تثير خوفي بشيء أكبر من هذه المزحة.

- أنا لا أمزح يا ورد..

أنا أخبركِ بالحقيقة فقط!

الحياة مستمرة وسوف تتعلمين العيش بدوني شئتِ ذلك أم أبيته.

أنا جربت شتى الطرق ولم أجد حلاً إلا هذا...

تمزقت أضلعي.. قلبي صار حطاماً.. انهارت أدمعي وحرقت كلماتي!

- أتقول بأنكَ أسهل شيء يمكن التخلي عنه.. أنا حتى لا أعتبر شيء بالنسبة لك .

- هذا أفضل يا ورد.. تزوجي وأكملي الحياة والأحلام!

- أ أنت مجنون؟

كيف تستطيع أن تقول تزوجي، هل هي بتلك السهولة.. هل ما أحببتني إياه بتلك الدرجة (تزوجي يا ورد) ؟

أ أنت جدي؟

أشعر بالحرائق تأكلني.. تمزقني وتجعل مني رماداً..

أبحث عن لاصق ألصق به جرحي الذي كاد دمه يخنقني!

لم أعد أستطيع تخبئة دموعي وصوتي!

- بحبي يا أيلول.. لا تذهب هكذا.. لا تجعل النار تأكل حدائقي.

سوف ابني طريقاً إليك وإن احتاج الأمر سأُلملم الرمال والأحجار بيدي ولكن سأصنع طريقاً يوصلني إليك.

- لن يكون هناك طريق يا ورد.. لا تحاولي. ..

قالها بجفاءٍ وبرود مزقني أشلاءً متتالية..

- أتوسل إليك لا تدع قلبي.. فأنت كل ما تمتلكه ذاكرت قلبي وخرائطه.. سأنتظرك أربعون عاماً إن شئت!

لم أعد أسمع صوت أيلول.. المكان هادئ إلا من صوت بكائي..أصرخ باسمه ولكن لا أحد!

أغلق هاتفه وجهي وذهب..

لم يجب عن شيء.. فقط رحل !

صرخت ذلك الألم وابتلعت دموعي بتلك الصرخة.. جثوتُ أرضاً واستطعمَت الأرض دموعي المنكسرة.

لماذا فعل هذا..

سمعتني قمر.. سمعت ضجيج أنيني..

- لماذا فعل هذا ليخبرني أحدكم!

بدأت تلك النار تحرق من حولي.. ولست أنا فقط.. إنها ستحرق الجميع!

أمسكت قمر يداي اللتان بدأتا تؤذيني.. بدأت أضرب بهما على الأرض حتى كاد الأرض أن تصرخ أنا اسفة لحزنكِ هذا ولكنكِ تؤلمين يدك عبثاً فأيلول لن يكترث..

احتضنت قمر خيبتي وحاولت أن تطفئ اشتعالي!

ولكن عبثاً كل ما فعلت.. عبثاً كل الكلمات..

باءت محاولاتها جميعاً بالفشل فلم تجد شيئاً غير البكاء معي.. جلست تبكي معي...!

هنا أنا الآن أعرف لا يمكن للمرء أن يستبدل عائلته بشخص قد أحبه.. لا يمكن لأي شخص أن يحبك كما تفعل معك العائلة وكما تحتضنك تلك العائلة..

ذهب الجميع وبقيت بمفردي، أنا الآن مع خيبتي وجلد الذات يُدميني.

تصرخ شفتاي وتركض نبضاتي التي توشحت بالخذلان، ترتجف أصابعي وقدماي وأشعر بارتجاف عقلي!

ثَقَل الألم اعوجاج أضلعي حتى صار قلبي يتكئ على عكازةِ الصبر..

سوف أحاول لأنني أموت بغير تربتك يا أيلول.

بعد أسبوع كامل من المحاولة للتواصل معه.. «وسنة» كاملة من فقدان نفسي، وبعد أن قرأ رسالتي الأخيرة والتي كتبت فيها:

- أيلول..

لست قوية كما عهدتني أشعر أني أموت ببطء شديد وكلما أتذكر أن تخليك عني كان من أجل مئتا مليون وأن هذا حجم حبك لي أتقيأ ألماً.

ولكنك تعرف بأنني شخص لا يستسلم أبداً ويؤمن بوجود المعجزات حتى وإن كانت المعجزات صغيرة وغير مرئية إلا بالقلب.

سوف تجمعني بك إحدى الطرق التي شيدت في هذا العالم و سوف ألقاك يوماً ما على رصيفٍ قديمٍ جار الزمان عليه وصار تربة ورمال متفرقة!

أجاب بعد مرور أسبوع..

- ورد، لن نجتمع مجدداً ولن نستطيع أن نتكلم حتى

« لا تحاولي يا ورد «!

- لا تفعل..

- ورد..

إن حاولت جاهدة أن تؤذيني أو حاولتِ الوصول لعائلتي...

لم أستطع قراءة تلك الرسالة، استوقفتني العبارة تلك.. أعتقد أني أقرأها خطأ فعدت إليها لأصحح خطأي:

قال ما نصتهُ رسالته:

- ورد. إن حاولتِ جاهدة أن تؤذيني أو حاولتِ الوصول لعائلتي وإن رأيت رسالة واحدة منكِ سوف تكون سمعتكِ تراباً للأرض.. لن تستطيعي رفع رأسكِ والنظر في وجوه العالم مجدداً كما تفعلين دائماً.

يجب أن تتقبلي أنا لست لكِ يا ورد!

وداعاً.

كانت الرسالة الأخيرة.. لقد هددني بها!

تعبت من البكاء.. تعبت من الحزن كلماتي فقدمت الضحك قرباناً للألم.. ضحكت وبقيت اضحك، لم أستوعب ما حل بي وما آلت إليه ثقتي!

هل هذا أيلول الذي أعرفه.. الذي أحبه.. إن كان هذا أيلول فَمن أنا؟

كنت بحاجة أحد في هذا العالم بل أي أحد أو أي شيء يحتضنني حتى لو

كان كرسياً.. ليقول لي:

(أبكي.. لا بأس.. سيمضي..)

لم يكن هناك أحد حتى أنا تخليت عن نفسي.. فألي وحيدٌ الآن.. وحيدٌ جداً ومليءٌ بالخيبة من أيلول!

صرختُ إلى السماءْ..

يا الله..

صرخت ولكن لم يُسمع صوتي.. حتى أذني لم تسمعان شيئاً..

أخرج أيها الصوت أرجوك فأنا لا أتنفس!

كان قد أحبني وقد أهداني قطعة من القمر وجزءً من أمواج البحر، كان قد جعلني أميرةً فوق مراجيح الشجر وزينني من اكليلها الأخضر.. كان قد حملني في قطراتِ المطر ورقص معي أهازيج السهر..

إذاً كان كل شيء كاذباً.. لا أحب.. لا حقيقة فيه.. كل شيء كان كاذباً كل الوعود التي بدت صادقة والكلمات التي كأنها حقيقية.. كل شيء بما فيهِ عيناه.

«أنا الآن فتاة ترتدي قلباً هَرِم « ... !

متعبة من كل شيء أنا الآن لا أستطيع حتى العودة لدراستي لم تبقى لدي أحلام.. فَـ أحلامي تبعثرت بوجه أيلول ولا أستطيع النظر إليه مجدداً.

أنا أهرب.. نعم أهرب

أخاف أن أرى وجهه فأعود وأتكلم معه.. أخاف أن أفعلها فيحرقني بكلمات جديدة!

لم أكن أستطيع أن أمحوه من هاتفي ولكنه قدِم على محوي من حياته بل وحياتي.

لم أكن أتوقع بأنك رجلٌ متردد بهذهِ الدرجة الحقيرة التي ملأتني كسوراً.

وقبل أن تفيق الجُلَنار حرقت وقبل أن يبدأ الجوريُّ بالإشراقِ وقبل أن يكون للتوليب عبقاً وأن يكون للياسمين بياض..

جميع الورود قُتلت قبل موسمها.. وأنت المتهم الوحيد في هذه الكارثة!

لأنه وبعد أن كان بقلبي حباً لا يُنافَس، جثى الآن على صدري ألماً لا تبددهُ الأيام..

الآن لا شيء سوى الغضب والألم له داخلي وأدعو الله في كل ليلة ألا يُذهب عني هذا الألم حتى أنشغل به ولا أعود لحبهِ من جديد!

إنه الألم الذي لا يتسع حجمه هذا الكوكب ولكن أيلول وضعه بصدري وأجبرهُ على البقاء به دون أن يحمله معي أحد!

أنا الآن متأكدة تماماً بأن الجميع سيرحل يوماً ما ولن يكون رحيلاً عادياً ولكن سيكون رحيلهم باليوم الذي تخسر به كل شيء ولن تجد كرسياً يحتضن خيبتك!

لم أستطيع تخطي ذلك الألم بمفردي.. لا أستطيع أن أكون ورد نيسان بعد الآن مُطلقاً.. حاولت أن أجد شيء أدفن به تلك الخيبة..، لا يمكنني أن أعيش معها، لا يمكن لقلبي أن يتحمل هذا العصف القاتل..

كان الذي بين يدي أيلول وردً واسارونٌ و وعودٌ بها أفتن والآن كل الذي صار يقتنيهِ رياحاً هبت كدت بها أن أقتل!

ارتديت خيبتي وخرجت إلى الشارع متوجهة إلى (اللا أعرف أين) أمشي في درابينهِ المعتمة وأبكي.. كان الوقت قبل منتصف الليل بساعة.

أحاول أن أهدأ في مشيتي.. أحاول ألا يراني أحد ولكن ذاكرتي هشة تماماً فهي بكل خطوة تتذكرك..

« لا يُمكن لأحدٍ أن يكون أنت «!

أريد فقط أن يحتضن خيبتي أحد لا أن أجلد... لا يمكن للبيت أن يتحمل ذلك الانعكاس مني، الانعكاس الذي لم يراني به أبداً.. أن أكون تلك الوردة التي قتلتها رياح أيلول ولكن الشوارع المعتمة تستطيع أن تتحمل خيبتي.

لا أعرف إلى أين تقودني قدماي أو أي الطرقات هي التي دخلت بها،

هناكَ رجلٌ لئيم يسترق النظر إليّ في زوايا إحدى الطرق ولعله يتساءل ما الذي أخرج فتاة في هذا الوقت من الليل،

وآخر يتساءل تثاقل خطواتي البطيئة، ولكنني بلا مبالاة تماماً.

لست بِخائفة!

لم أكن أشعر بالأرجاء أبداً لأن الأصوات استولت على عقلي وجعلت بيني وبين العالم غشاءً من كلمات!

تمايلتُ كوردة قطفت من شجرتِها أو زحزحتها رياح أيلول وقبل أن أقع على الأرض معلنةً انهياري للخفافيش سمعتُ صوتاً يقول:

- ورد.... توقفِ يا ورد!

لم أعرف لمن الصوت حتى.. لم أتذكر لِمَن تلك الملامح!

أمسك ذلك الشخص كتفي خشية سقوطي!

- مَن أنتِ؟

لم تتكلم تلك المرأة، ولكنني مشيت معها ببطءٍ مؤلم ..

قالت:

- أ يحجب الألم عينيكِ.. أ فلا تعرفيني.. أ تعرفين مَن أنتِ؟

- لا، ولكنني خرجتُ ابحث عني!

- لم أرى بأن تلك المرأة بكت إطلاقاً.. ولكن صوتها كان يتعثر بالحزن!

استمرينا بالمشي إلى أن وجدنا شارعاً مليئاً بالأنوار!

نظرت إلى وجهها..

نعم أنا أعرف تلك المرأة!

مسحت بأطراف أصابعي مقلتيّ.. أريد أن تتضح رؤيتي!

نعم إنها عمتي!

يا إلهي لا أريد أن أراها أنا مهزومة.. إنها كانت محقة في كل شيء قالته، ولكنني بنتٌ عنيدة لم أصدقها!

(أعرف أنها أرادت حمايتي من هذه الليلة.. ومن هذا السقوط، ولكنني رفضتُ بقواي حتى سقطتُ وتحطمت تلك القوى المزيفة) !

٢٠٢١ م

لم تعد عيناي كما أخبرتني عنها سابقاً فاليوم نظرت إليها بمرآتي القديمة..

تمعَنتها كما كنت تتمعنُها..

أردت أن أرى فيها جمالي القديم وروحي الصادقة، ولكنها لم تكن كما كانت معك.. كل شيء معك مختلف حتى عيناي!

فقد كانت تلك العينين باهتة ومظلمة أكثر من كونهما سوداوين فقط.

كنتُ أشبه بتاج سُرق من رأس ملك وأخذ السارق مجوهراتهِ فَباعها قطعة قطعة.

رأيتُ قلبي..

بحثت عن غابة حدثتك عنها وعن كل شجرة غُرست بتعب محبب، ولكنني لم أراها د كانت الأشجار مرمية على الأوردة تخنق أنفاسي.

نجحت أنت في التجاوز يا أيلول وأما أنا فأروي لنفسي ما حدث كل ليلة لأتأكد من أنها النهاية.

كان الألم ينفعني لأتخلى عن حبك يا أيلول.

أنا الآن أقف عند نقطة الصفر..

لم أخاف يوماً من أن أقف عند نقطة الصفر وأن أبدأ منها.

كنت تقول لي دائماً.

يجب أن تكون هناك أكثر من خطة واحدة وأكثر من حل واحد لِتفادي المشكلات، ولأنه من الغباء أن نفشل ونبقى في المكان ذاته نتحسر على ما فاتنا من خطوات وأفكار!

أنا في نهاية الطريق الذي وعدتني بالمجيء إليه وفي النهاية تلك لا أنتظرك.. بل أنتظر أن تخرج مني إلى الأبد لأنني أنا الآن أخسر أحلامي بسببك..

فَلتعرف بأنني أحببتك للدرجة التي تحملت الألم عنك.. وخسرت عنك، ولكن لا تقلق أيها الغريب سأحاول مجدداً

سَأكون قوية.. لن أثق بأحد.. لن أعطي كل ما لدي فأبقى وحيدة كشجرة الأثلِ في الصحراء..

سأتخطى الألم يا أيلول وثم بعد حينٍ سآوي إلى رُكنٍ شديد.. سآوي إلى اللهِ إنَّ الله يأويني!

٣٠/١/٢٠٢٣ م

٣:١٥ عصراً

بعد مرور ثلاثة أعوام من الألم..

ثلاثة أعوام تحاول عائلتي فهمي.. و لماذا تخليت عن كل حلم.. عن شغفي!

ولكن بلا جدوى..

لا أستطيع أن أتكلم.. لا أستطيع أن أفصح عن تلك الخيبة التي سرقت مني ليالِ وأيامٍ طوال.. كانت تلك الليالي العجاف..!

كل شيء يعرفونه عني بأنني متعبة، متعبة فقط ولا امتلك سبباً للتبرير والتعليل!

أنا الآن أريد أن أتخلص منك إلى الأبد. أريد أن أرميك من داخلي..

أنت تسكن فيني على هيئة معصية وأنا أكره المعاصي!

« أريدُ أن ترحل مني يا أيلول فما عادت ريحك تحرق شيئاً.. فَلم يبقى هناك شيء يُحرق، لقد قضيت على الربيع «

أنا أقف الآن عند حديقة منزل عمتي الخارجية بالقرب من تلك النخلة الهزيلة..

اتصلت عليها أريد منها الخروج لمقابلتي..

ولكنها عندما خرجت رأتني متوشحة بلباسٍ أسود وكان وجهي أشبه بوجوه العابرين في الجنائز..

كنت أحمل صندوقاً أسوداً..

سألتني:

- أ أنتِ بخير يا ورد؟

هل بكِ شيء، بماذا تشعرين؟

وقفت صامتة!!

أكملت استفهامات متتالية!

- لماذا ترتدين هذا السواد..؟

ما هذا الصندوق.. هل هناك أحد به شيء.. هل والدكِ بخير؟

- الجميع بخير يا عمتي إلا أنا!

بقيت تنظر لي.. ثم قالت:

- ورد..

أعرف بأنكِ تحمليني عبء خسارتكِ.. أعرف بأنكِ تظنين بأني السبب في كل شيء!

أنا أتفهم حجم الألم الذي قاسيتهِ منذ سنوات وأنا أعرف بأنكِ ما زلتِ تعانين الألم ذاته بدون ضياع ولو جزءاً صغيراً منه.

أشعر بحجم هذا الألم يا ورد كلما جئت أنظر إلى عينيكِ.. وإلى وجهكِ الذي بَدا في الأربعين عاماً من عمره!

لا تحبيهِ يا ورد.. إنهُ مَن تسبب بخسارتكِ، إنه لا يستحق.. أرجوكِ لا تحزني أكثر!

كان من المفترض أن يراكِ والداكِ في هذا العام وأنتِ تحملين شهادتكِ الأولى أو كتابكِ الأول.. أو طفلكِ الأول!

إنهُ مَن تسبب بهذا الجرح الذي لا يندمل وجعل منكِ صحراء خاوية لا وردٌ فيها ولا ماء!

بعـد أن أنهـت تلـك الكلمـات نظـرت في عيـنيّ اللتـين تسـيلانِ مـن الحـزن واحتضنتـني..

نعم احتضنتني بقوة.. أعتقد بأنها سمعت تسارع نبضاتي!

لم أكـن احتـفي بذلـك الاحتضـان بقـدر مـا احتفيـتُ بأن هنـاك أحـدهم شـعر بي.. عـرَف بمـاذا أشـعر ولمـاذا أنا أشـعر بـه إلى الآن!

لم تلومـني لأنـني مـا زلـت أحبـه إلى الآن.. ولكنهـا قالـت: (لا تحبيـهُ يا ورد.. إنـه لا يسـتحق) !

سألتني مجدداً..

- ما هذا الصندوق ولماذا ترتدين هذه الثياب البالية!

- كنـتِ أنـتِ أول مَـن عـرف أيلـول بعيـني.. وأول مَـن أخـبرني بأن أبتعـد عنـه وألا أحبـه.. وأنـتِ سـتكونين آخـر مـن يرى أيلـول بعيـني وأول مَـن سَـأخبرهُ بأنـني ابتعـدتُ عنـه!

- ما الذي تقصدينه؟

- اليـوم سـوف أُشـيعُ أيلـول بداخـلي وسـوف أحرقـه إلى الأبـد.. أنا أدعـوكِ لأن تحـضري جنازتـه مـعي يا عمـتي!

فتحـت الصنـدوق الأسـود وكان يـضم سـواراً قـد أهـداهُ لي و وردةً منـذ لقـائي الأول بـه.. وصـورة كنـت قـد خبأتهـا لأراهُ كل مـا شـعرت بالبـكاء..

أخرجتُ عود كبريت من الصندوق نفسه وأعلنتُ حربي!

أنا أحرقك الآن..

جعلـت النـار تشـتعل بـك، وكلمـا جـاءت لتنطفئ أشـعلت عـود كبريـتٍ آخـر حـتى تحولـت إلى رمـاد وبقيـت الـرياح تقلبـك شمالاً تارةً وجنـوباً تارةً أُخـرى.

أعدك بأنني لن أسامحك.. لن أغفر لك!

بالأمس أحرقتك واليوم سأكتبك، وسوف أفصح عنك لأن أسلحة النسيان قد نفدت ولم أعد أجرؤ على الخوض في المعارك الخاسرة أبداً.

فَمنذ أن رحلت أصاب زهرتي الخريف إلى الأبد!

أكتبك الآن..

أفصح بتلك المشاعر للمارة والسماءِ وأوراق الشجر..

قررت أن أرميك على ممرات كتيبٍ وعلى عتباتِ أسطر..

فَالحب الذي ملأتني به إلى حد الإفراط صار خواءً يرتمي بين أحضان الذكرى الحزينة.. سَأُمررُ حزني إليك ليبتلع آخر النور في النفق الذي في صدرك أو ذلك النفق الذي لجأت به عني وتركت الظلام ينعتني بـ «حبيبتي»

اليوم ستحاول اللغة العربية أن تبحث عن معانٍ تخلصني من عبئك الكبير الذي أجبرتني على العيش معه بهدوءٍ تامٍ وألمٍ تام!

سوف أكتبك يا أيلول ولكن ليس إلى الأبد فَأنا أنتظر معجزة تجمعني بحروفي الصادقة وحينها سأتخلص من حزنك والألم الذي أُكِلتُ به.

أنا أبوح بك ليقرأُك أقراني ولِتموت أنتَ بمعصمي.. وليكون الورق قبراً لك من بعد ربيع قلبي.

أكتب عنك لا إليك.. سوف أنثرك وأُبعثرك.

وكما أشعة الشمس التي تسقط على العالم أجمع..

ستسقط أمني رُغماً عنك!

١٣/٤/٢٠٢٣

في المقهى القديم.

تحاول أن تعود حياتي إلى سيرها الطبيعي.. أنا أفكر بالعودة إلى الدراسة واسترجاع أحلامي.. أفكر بأن يعود الربيع لقلبي..

إنها السنة الأخيرة لأيلول و يتخرج من الجامعة.. لأعود أنا!

جلست على نفس طاولتي في المقهى الذي أحبه..

قلت للنادل من بعيد..:

- من فضلك.. أريدُ الطلب نفسه!

نعم فلم أغير الشاي ذو طعم الهيل منذ ثلاث سنوات وحتى أن صاحب المقهى منذ عامين لا يصب لي ذلك الشاي إلا في الكوب نفسه منذ سنوات واعتقد بأنهُ يشتري المزيد والمزيد من ذلك الكوب الذي لا أراه إلا على طاولتي..

إنه لي غالباً!

بعد أن أحضر النادل كوب الشاي الخاص بي قال:

- هل تحتاجين شيئاً آخر يا آنسة ورد؟

قلت له:

- نعم..

أحتاج دفتراً.. هل بإمكانك أن تحضر لي دفتراً؟

- بالطبع يا آنسة ورد..

فصاحب المقهى الجديد أمر بأن نشتري حزمة من الدفاتر لكِ منذ أن رآكِ

تلوذين بالكتابة كلما جئتِ إلى هنا!

- منذ متى بيع هذا المقهى.. لم أرى إعلاناً قط؟

- منذ عامين!

- هل يحب صاحب المقهى الكتابة؟

- لا أعرف يا آنستي.. أعتذر.

- هل بإمكاني أن ألتقي بصاحب المقهى وأشكره على لطفه.. فإنه يعتني بأكوابي ويحضر لي دفاتراً..

ولذلك وجب شكره!

سمعت صوتاً من خلفي يقول للنادل:

- أحمد.. من فضلك بإمكانك الذهاب الآن!

عدتُ إلى الوراء.. التفت قلبي إلى ثلاثة سنوات مضت بطولها.. يبحث عن صاحب الصوت هذا..

رئتاي تعرف ذلك العطر.. العطر الذي يأتيني بالهواء كل ليلة.. أنا لن أنسى!

تقدم بالجلوس..

أزاح الكرسي وهو ينظر في عيني!

- أتسمحين يا ورد نيسان؟

لم أجيب.. بقيت صامتة وأبكي.. يبكي جسدي الأحمق، إنه ما زال يحبه!

عاود السؤال:

- هل بإمكاني الجلوس يا وردَ نيسان؟

- تفضل.. أيلول!

بقي صامت.. صامت ولا أعرف ماذا يدور في رأسه، ولكنّ الذي يدور في رأسي ليس جيداً بتاتاً.

فَأنا أحاول الصراخ.. أحاول أن أضرب الكوب في رأسه.. أو حتى الكرسي!

أنا أحترق من جديد!

قلت له:

- لماذا تحضر لي الأكواب الخاصة وتشتري لي الدفاتر؟

بل لماذا اقتنيت هذا المقهى؟

- لأكفر عن ذنبي يا ورد!

- أيكفر الكوب عن قلب قد أهلكته وسرقت منه الحياة وجعلت من الأحلام لحداً له؟

- أَنا اسف.. لم أرغب بحدوث هذا..

- هل اسف؟

- أعرف بأنكِ لن تسامحيني اطلاقاً على ما فعلته معكِ.. ومهما فعلت مجدداً لأرضيكِ.. أعرف جيداً يا ورد ولكن أرجوكِ لا تنظري لي هكذا مثل شيءٍ رخيص بعدما كنت أنا النور في عينيكِ.

- يبدو أنك لست مدركاً عن حجم الكوارث التي طُحت بها بسببك؟

- بلى، أنا مدرك!

وأحاولُ التكفير عن ذنبي!

- يبدو الآن ذنبك أكبر لأنك أحرقت المقهى هذا عندما اشتريته.. هذا كان المكان الوحيد لأهرب منك إليه وأنت الآن فيه من جديد!

إنك تسرق كل شيء أحبه يا أيلول!

- لم أرغب بحدوث هذا.. انا اسف!

- ما رأيكَ أن تعود بي؟

- إلى أين؟

- إلى حيث لم ألتقيك من قبل..!

- لماذا، أ ندمتِ؟
- نعم، أريدُ أن يعود قلبي موطناً للورد فمنذُ رحيلك عانقي أيلول!

هل تنتظر نهاية أيها القارئ؟
لماذا تحب أن يكون هناك نهاية؟
ألا تدرك بأن جميع النهايات هي بداية لشيء ما؟
أنظر إلى عالمنا هذا..
إنه أعظم شيء وأكبر شيء، وبالرغم من هذا فإن نهايته بداية جديدة!
لا تنتظر النهايات يا صديقي
فكل النهايات كاذبة
وذلك لأنها بداياتٌ لشيء جديد...
أكتب نهاية ببدايةٍ من قلمك.